طلعنا عالحريّة

حرية ، كرامة، مواطنة

الأمل بحياة ممكنة!

العدد 107
2022 / 12 / 31
مجلة شهرية، سياسية، ثقافية، منتقلة

الأمل بحياة ممكنة!

افتتاحية العدد بقلم أسامة نصّار

شاع أن ينشغل الإعلام في آخر كل سنة بعمل عروض مجملة وبانورامية لأهم ما حدث في العام المنقضي، وربما عرّج البعض لرصد احتفالات الناس بالأعياد..

كيف يا ترى تبدو الصورة البانورامية لسوريا في نهاية هذه السنة؟

عادة ما تترك الأحداث المتأخرة انطباعاتها على طريقة نظرتنا لكل السنة، وحتى لا تنطبع صور المآسي الأخيرة دعونا نكبّر العدسة قليلاً؛ لنأخذ عشر سنين بدلاً من واحدة. يبدو الآن من الصعب أن نبعد عدستنا أكثر لنأخذ صورة تمثل البلد وتضم أكثر من عقد ونيف من الزمن.

لا شك أن الصورة البانورامية هي صورة مجمل الشهداء الكثيرين لدرجة أننا لم نستطع حتى أن نحصي عددهم. أو صورة للمعتقلين الذين لا نعرف عددهم أيضاً، ولا نعرف مصير معظمهم وفي كل الأحوال لا نملك لهم إلا إعادة ذكرهم والتذكير بهم.

وصورة من القمر الصناعي (الأمريكي) لسوريا تقول إن الكهرباء مقطوعة في معظم هذه (الدولة). وصور غوغل إيرث تقول إن أكثر من نصف البلد صار مدمّراً ولا تقول من الذي دمّره.

الصور الفوتوغرافية من وعن سوريا والسوريين غالباً ما تكون لطفل ينزف وفي الخلفية حطام وحريق ومزيد من الجثث. أو طفلة تلبس أسمالاً ممزقة في البرد... لكن عيونها تلمع. أو صورة مركب تهريب للبشر يتهادى في البحر ومعظم ركابه سوريون خائفون.. (لا نريد ذكر الصور التي تتعلق بالرجم أو بقطع الرؤوس والأيدي والأصوات والأحلام..).

من مناطق النظام تأتي صورة بشار الأسد أو البسطار العسكري، وطوابير المتعبين بانتظار الخبز أو الغاز أو البنزين..

قتلى وأشلاء ومشردون وبشار الأسد وحذاء وجنود غرباء.. برقع أفغاني، لحى وسيوف ورؤوس تطير.. هكذا يرانا العالم وهكذا يريدنا أن نرى أنفسنا وبلادنا.

ستبدو أوقات الانتصار للحرية والكرامة كومضات (فلاشات) سريعة بالكاد تؤثر على شكل (وإضاءة) النتيجة.

سوريا (مملكة الصمت سابقاً) صارت لعشر سنوات أصخب بقعة في العالم، والأخطر أيضاً.. مكان مزعج ومنزعج؛ فعندما ثار السوريون تعرّى العالم ومؤسساته الدولية.

لكن، ماذا لو غيرنا طريقة التصوير بدلاً من أن نغير العدسة فقط؟ ألا توجد أجهزة تصوّر مثلاً وضع الاستبداد؟ أو القهر؟ مثلما صار في كرة القدم أجهزة ترصد الخارطة الحركية للاعبين، أو للمس كلّ واحد منهم للكرة.. مراكز الأبحاث تقوم بذلك..

وللأسف، تبدو صورة مؤشر الحرية والعدالة أو احترام الناس متشابهة على امتداد الخارطة.

وهناك أيضاً مؤشر للأمل؛ شعور الناس بأن القادم أفضل أو حتى (من الممكن احتماله). لا شكّ أن الصورة الأخيرة صمّاء بلون واحد، بغض النظر عمن يحكم أو يتسلط على هذه المنطقة أو تلك.

ولعلّ هذا هو أهم تحدٍ للسنوات القادمة؛ أن نعيد لأنفسنا الأمل؛ المسوّغ الذي نستمرّ من أجله، الإيمان بأن هناك حياة ممكنة تنتظرنا وتنتظر أولادنا، في هذه السنة وفي سنوات أخرى قادمة.

طلعنا عالحريّة

شهرية ثقافية، اجتماعية، سياسية، تعنى بالشأن السوري

www.freedomraise.net

المقالات المنشورة تعبر عن آراء أصحابها أولاً ولا تعبر بالضرورة عن آراء هيئة التحرير

المجلة غير ملزمة بنشر كل ما يردها من مواد

رئيس التحرير أسامة نصّار

نائب رئيس التحرير ليلى الصفدي

تفاعل معنا عبر صفحاتنا على الإنترنت

facebook.com/rising4freedom

twitter.com/freedomraise

freedomraise@gmail.com

المدير الإداري	الغلاف	كاريكاتير	أمن رقمي ومحاسبة	زملاء مختطفون في سوريا
معتصم أبو الشامات	سمير خليلي	سمير خليلي / هاني عبّاس	وائل موسى	رزان زيتونة - ناظم حمادي

"إلى رزان وسميرة وناظم ووائل"

كانون الأول 2022

العزيزتان رزان وسميرة، العزيزان ناظم ووائل،

مضت 9 سنوات منذ أن تمّ تغييبكم/ن، وما من عام مضى لم يكن وتكن كل منكم/ن حاضراً وحاضرةً في البال، في جعبتنا الكثير لنقوله لكم/ن، لدينا الكثير من الأخبار والتحديات لنناقشها معكم/ن والنجاحات التي نرغب أن نشاركها معكم/ن والأفكار التي نود أن نسمع آراءكم/ن حولها فهل ستتسع هذه الرسالة لما نود مشاركته؟ بالطبع لا... لكننا ومن أجل جهودكم/ن التي لا يُستهان بها ومساهماتكم/ن في إنشاء وتشكيل وإطلاق مؤسّسات وكيانات فاعلة اليوم لا تكلّ ولا تملّ ... نقول إننا أخذنا على أنفسنا عهداً بالسير فيما بدأتم/ن به.

لماذا نخاطبكم/ن برسالة؟ ومالذي تغير؟ هل نستطيع أن ندعي أن سوريا اليوم هي سوريا التي تمنيناها جميعاً؟ مجدداً لا... وما يزال الطريق طويلاً حيث نعمل ونتعاون ونسعى لتحقيق غايتنا! مما في جعبتنا لنقوله لكم/ن:

إنّ منظمة"سوريات من أجل التنمية" التي أسستها الروائية سمر يزبك وساهمت رزان بجهود بناء الشراكات المحلية بها، غيرت اسمها لـ النساء الآن من أجل التنمية تيمناً باسم مشغل الخياطة والصوف الذي أسسته رزان وتطوعت حينها سميرة بالإشراف عليه. رزان وسميرة شريكتا النضال، كنتما جزء من حياة النساء اليومية وقاسمتهنّ آلامهن وآمالهن والحصار والوجع كما الحب والإنتاج والعمل الدائم. لقد تطورت المنظمة من شبكة مراكز نسائية لأكبر مؤسسة نسوية في سوريا ودول الجوار ويتألف فريقها من أكثر من 150 امرأة فاعلة في شتى المجالات، من الحماية والتمكين والمشاركة. استفادات آلاف النساء من خدمات المنظمة كما صارت مرجعاً أساسياً للإنتاج المعرفي النسوي وإعلاء صوت النساء السوريات في المحافل الدولية.

المنظمة اليوم رائدة في مجال وصول النساء للعدالة ومشاركتهن بصناعتها. رغم الغياب والتهجير، احتفلت المنظمة هذا العام بعيدها العاشر بشعار آمنا به جميعاً "سنكون يوما مانريد".

وما يزال مكتب التنمية المحلية ودعم المشاريع الصغيرة (LDSPS) مستمراً في العمل، بل توسع ليتحول إلى مؤسسة تهدف إلى تمكين ودعم المجتمعات المحلية في مناطق مختلفة من سوريا. حيث ينطلق من مبدأ نشر مفاهيم المواطنة الفاعلة والممارسة الديمقراطية على مستوى المجتمعات المحلية، وتفعيل ودعم المجتمع المدني المحلي والأجسام الحوكمية المحلية كركائز ضرورية لتحقيق الاستقرار وإنشاء نظام ديمقراطي مستدام في سوريا، يتم من خلاله تمثيل مصالح جميع السوريين/ات وتطلعاتهم/ن نحو الحرية والكرامة اعتماداً على المشاركة المجتمعية في صنع القرار والتشاركية وعدم التمييز ، وقد نجح فعلاً في إجراء انتخابات عامة ومباشرة في أكثر من منطقة من مناطق عمله. تمنينا أن تكونوا بيننا ونحن نسمع الأهالي يخبروننا بسعادتهم/ن بتجربة انتخابية للمرة الأولى في حياتهم/ن أو كيف يصفون/ن شعورهم/ن وهم/ن يقومون/يقمن للمرة الأولى باختيار من يمثلهم/ن. اليوم يضم فريق LD-SPS داخل سوريا وخارجها خلفيات متنوعة تُثري المؤسسة بالرؤى والمهارات المتميّزة والنشاط المجتمعي والحقوقي، الأكاديمي والبحثي.

أما مركز توثيق الانتهاكات في سوريا (VDC) وبالرغم من تأثر الفريق بشدة بجريمة اختطافكم/ن، إلا أن هذه الجريمة كانت دافعاً إضافياً لاستمرار العمل على توثيق الانتهاكات -من قبل كافة الجهات الفاعلة في سوريا- وتطويره على مراحل متعددة باتت تشمل حالياً توثيق الانتهاكات الواقعة على اللاجئين السوريين في بلاد اللجوء. بعد أن عاود المركز السوري للإعلام وحرية التعبير (SCM) نشاطه في عام 2016 عاد VDC للانضمام إليه ليكمل مسيرته كواحد من أهم مشاريع التوثيق السورية. أصدر المشروع العديد من التقارير والدراسات الهامة التي تعتبر مراجع لهيئات أممية ودولية، ولا تزال توثيقات المشروع حجز الأساس في العديد من الشكاوى القضائية التي عمل المركز عليها ضمن إطار مشروع التقاضي الاستراتيجي بتوفيره لقاعدة من المعلومات، الشهادات والأدلة. قام المشروع بتطوير أدواته المعرفية والنظرية من منهجيات وأدوات تقنية للتوفق مع المعايير الدولية، حتى بات من الممكن تعميمه في دول تشابه سوريا بحالة حقوق الإنسان ويتم العمل حالياً على نقل المعرفة التراكمية لهذا المشروع لمنظمات حقوقية ومدنية أخرى لتوثيق انتهاكات حقوق الإنسان بلدانها.

عزيزتنا رزان،

لقد كان تشجيعك ودعمك لمن حولك قبل تغييبك مصدر إلهام لنا يدفعنا للمتابعة بدون كلل أو ملل بالرغم من كل التحديات والمتغيرات. وتتويجاً للتوثيقات والمعلومات التي قمتِ والفريق في دوما بجمعها صباح مجزرة الكيماوي في 21 آب 2013، تنظر اليوم ثلاث جهات قضائية في فرنسا والسويد وألمانيا في قضية الهجمات بالأسلحة الكيميائية على المدنيين في سوريا، بل وتعتمد ملفات هذه القضايا بشكل كبير على جهودكم/ن والأدلة التي جمعتموها كحجر أساس، بالإضافة إلى شهادات الناجين والناجيات. نؤكد لك أننا لم ولن نتوقف هنا، إذ تتوحد جهود العديد من المنظمات والمبادرات الحقوقية السورية والدولية لدعم جهود التقاضي فيما يخص الجرائم المرتكبة بالأسلحة الكيماوية.

كان آخر هذه الجهود ما بدأ في عام 2020 بخطوة أولى من أجل تشكيل "رابطة ضحايا الأسلحة الكيميائية (AVCW)" والذي توجّ مؤخراً بإطلاق الرابطة في شهر آب 2022، لتضم ناجين وناجيات وأهالي وذوي الضحايا.

عزيزتنا سميرة،

كان مكتبك وجهة وقبلة لذوي المغيبين/ات والمختفين/ات، يشكون ويشكين ألم غياب أحبتهم/ن، وجدوا ووجدن فيكِ الإنسانة القادرة على فهمهم/ن وسماعهم/ن كونك كنت ذات يوم مغيبة قسراً، قبل أن تغيبي مجدداً في سبيل القضية ذاتها. ونعمل اليوم مع مجموعة من روابط ومجموعات الضحايا والمنظمات السورية والدولية على دعم جهود إنشاء آلية دولية معنية بمصير المفقودين/ات والمغيبين/ات قسراً في سوريا! ونحن قاب قوسين من إنشائها. ليس هذا وحسب، إن المشاهدات المجتمعية ويوميات الحصار التي قمت بتدوينها على دفترك أصبحت كتاباً مترجماً لعدة لغات بعنوان "يوميات الحصار في دوما 2013" وضعه ياسن، تُقدَّم من خلاله قضيةُ السوريين/ات وكفاحهم/ن من أجل الحرية والكرامة. وفي باريس بدءاً من العام المقبل، سوف تمنح مؤسسة سميرة الخليل، التي أسست تكريماً لنضالك جائزة باسمك "جائزة سميرة الخليل"، سنوياً وتحديداً في 8 آذار، سوف تُمنح هذه الجائزة لامرأة يعزز نشاطها وممارستها ومسارها النضال من أجل وضع حد لانتهاكات حقوق الإنسان والحريات على الصعيدين العربي والمتوسطي.

عزيزنا ناظم،

نحن اليوم كما كنت دائماً، ملتزمون وملتزمات بقضيتنا نستمد التزامنا من مثابرتك وشجاعتك، نلاحق الجناة ونحلم بوطنٍ يسوده العدل كما كنت تأمل طوال سنوات نشاطك كمحامٍ ومدافع عن حقوق الإنسان ومواطن وشاعر. نعمل الآن مع عدد من المنظمات السورية والدولية الزميلة والشريكة على إعداد ودعم ملفات شكاوى وقضايا أمام جهات قضائية عديدة أوروبية ودولية لمجرمين ارتكبوا جرائم بحق السوريين/ات -شبيهين بالمجرمين الذين ساهمت بتوثيق جرائمهم- لمحاسبتهم أمام القضاء. ومن هذه الملفات نجحنا مع شركائنا السوريين والدوليين في وضع اثنين من مرتكبي الانتهاكات بحق السوريين/ات خلف القضبان في ألمانيا. وسوف نبذل كل جهد نستطيعه لمواصلة العمل الذي حاولوا منعكم/ن من تنفيذه. إن مجلة طلعنا عالحرية التي ساهمت في تأسيسها استمرت في الصدور وفي نشر قصائدك على صفحاتها كذلك، وصار غيابك وغياب رزان عن فريقها حافزاً يزيد من تبقى منهم/ن إصراراً على المواصلة والاستمرار. دورك الكبير في تقديم المساعدات الإنسانية في مناطق كانت تحت الحصار أثناء الثورة لم يذهب سدى، إذ تتابع مؤسسات نشأت من لجان التنسيق -التي كان لك ولـ وائل ورزان دور في تأسيسها- العمل على تقديم الدعم الإنساني والإغاثي لمن هم/ن بحاجة له.

عزيزنا وائل،

نستشعر غيابك في كل يوم، نبحث عن مثابرتك وجهودك، أنت الذي لم توفر وقتاً ولم تترك مشكلة إلاّ ووجدت لها حلاً. كثير من الأعمال ولدت من رحم لجان التنسيق المحلية التي ساهمت وناظم ورزان في تأسيسها؛ مؤسسات تخصصية في التنمية والإغاثة والحقوق والإعلام والمناصرة، كلها تستمد رسالاتها من الرؤية التي آمنت بها وتمثلتها. نعجز حتى اليوم عن معرفة مصيرك، ولكننا كما كنت دائماً لا نوفر جهداً في السعي لكشفه ومحاسبة من اختطفك. في أحد السجون الفرنسية يقبع اليوم أحد الضالعين باختطافك، وهو الآن بانتظار أن يقول القضاء الفرنسي كلمته ويحاكمه. كنا نأمل أن نصل اليوم إلى إمكانية محاسبة الجناة أمام قضاء سوري عادل مستقل ونزيه في بلدنا التي حلمنا سوية بحريتها وديمقراطيتها، لكننا نعرف أن ما يتم الآن هو خطوات على درب العدالة الطويل. بين أيدينا أدلة وشهادات تثبت جرم اختطافك ورزان وناظم وسميرة، ونسعى وذويكم/ن لمعرفة مكانكم/ن وتحريركم/ن. هذه خطوة من العديد من الخطوات التي لن نتخلى عنها حتى ينال مرتكبو الانتهاكات جزاءهم ونلتقي من جديد.

وحتى نلتقي... أصدقاؤكم/ن من دمشق، بيروت، عمان، إربيل، أنقرة، باريس، برلين، بيرن، مدريد، أمستردام، لندن، ستوكهولم، واشنطن، أوتاوا.

9 كانون الأول 2022.

التجديد بين الأمل والوجل

د. محمد العمّار

ربما من أكثر المفاهيم جدلاً في الفكر الإسلامي المعاصر، مفهوم التجديد، وقد كان له عبر المئة عام الأخير صيغ وتجليات مختلفة، كان بعضها جاداً وعميقاً، وكان بعضها عابثاً سطحياً، واتخذ بعضها اتجاهات تغريبية، وبعضها الآخر اتخذ اتجاهات تاريخية ماضوية، وقد سيطر على معظمها العجز عن إقامة علاقة صحيحة مع التراث ومراجعه، بحيث تستفيد منه في بناء عالم ثقافي معاصر، لا يكون مديناً للماضي، ولا يكون أسيراً للنماذج الثقافية المعاصرة، بل يكون معبراً عن المسلم الذي يعيشه ويتبناه، ويبدوا أن عقدة النقص إزاء الحضارة الغربية المتفوقة عسكرياً وسياسياً واجتماعياً وأخلاقياً (وإن كنا نستخدم أقمشة أكثر منهم في تغطية النساء!)، أقول تجعل هذه العقدة العلاقة المعقولة؛ أي علاقة التضايف، غير مستقرة ولا ممكنة. فالمسلم في علاقته مع الحضارة الغربية، كما يقول المثل العامي: "عينه فيه، وتفوه عليه"! فهو يتمنى أن يكون له مثل عجلهم، ويخشى أن يفارق ما وجد عليه الآباء، وهو كقوم موسى الذين لم يعرفوا معنى أن يوجد بينهم موسى، ولذلك لم يروه إلا وسيلة للتوسل إلى ربهم أن يجعل لهم "إلها كما للآخرين آلهة"، وهذا سبب المشكلة التي يعيشها مسلمو اليوم؛ أنهم لا يعلمون قيمة ما عندهم بسبب غيبتهم عما حدث في العالم، ولو علموا ما حدث في العالم لعلموا قيمة ما عندهم، وتمكنوا من إقامة علاقة صحيحة معه، ومع العالم المعاصر، وبسبب هذه القطيعة المضاعفة عن التراث ومصادره الأصلية، وعن آخر منتجات العقل الإنساني، يعيش العقل المسلم هذه المتناقضة؛ فهم يريدون أن يجددوا مع المحافظة على تراث الآباء، ويريدون أن يغيروا العالم شريطة أن لا يتغيروا! ولذلك تبدأ حركة الفكر عندهم بالوقوف، ويبدأ التجديد عندهم بالتقليد، ومن ثم تكون محصلة حركتهم دوراناً في المكان وجموداً في الزمان. وخير من عبر عن هذه الحال أخيراً، الكاتب العراقي د. أحمد خيري العمري في مقال كتبه مؤخراً عن التجديد، فهو يريد قبل البدء الاطمئنان إلى الضوابط والشروط، ولكن هل يمكن أن يكون التجديد بشروط وضوابط؟ وهل التجديد إلا خروج على الشروط والضوابط؟ حتى في الحقول العلمية البحتة، لا يمكن التقدم إلا بكسر البارادايم وتجاوز ضوابطه وشروطه، لأن البارادايم لا يستدعي الحركة والتجديد إلا عندما يصبح قيداً يعيق الحركة، بعد أن كان هادياً ومرشداً لها. فالذي يتحدث عن التجديد ويتحدث عن الشروط والضوابط، تماماً كمن يريد أن يأكل من الكعكة ويريد في نفس الوقت أن يحافظ عليها. كما أن الرغبة باستدعاء الشروط قبل الحركة تعكس نوعاً من الرهاب، وعدم الثقة بالنفس أو الموضوع محلّ التجديد، وكأن الحركة من غير ضوابط يمكن أن تبدد ما لدينا وتجعله عرضة للضياع!

واستدعاء مثل هذه المشاعر أمر مشروع، لكن أن نحول هذه الهواجس إلى منطلقات لا يجوز تخطيها، فهذا إبطال لكل سعي وإقعاد لكل همة، والذي يخطر له مثل هذا الخاطر في مثل هذه اللحظة، كمن استيقظ من النوم للتو، ولم يكمل عملية صحوه، فهو يخشى من أن أي حركة سريعة أو متعجلة قد تودي به، ولذلك تجده متردداً في حركته، بطيئاً فيما يقوم به، غير واثق مما يفعل.

إن التجديد تحرر وكسر للقوالب القديمة، ولا يمكن البدء في عملية التحرر بوضع قيود جديدة، كل ما هو منظم ومقعّد في الحياة الإنسانية، وفي تاريخ العلوم والمعارف الإنسانية، لم يبدأ بالقواعد والقوانين ، وإنما بدأ بكسر القوانين والقواعد، وإنما جاءت القواعد تالية عندما استوت المعارف واستقرت، وعندما ترسخت القواعد أبطأت حركة التجديد، ثم اشتدت القواعد حتى شلّت حركة الفكر وأغلقت باب الاجتهاد، وعند هذه اللحظة تتوقف الأمة عن التقدم والنمو.

حدث هذا في كل الأزمنة، وفي كل الأمكنة، وفي كل الحقول، ولدى كل الأمم، وحدث لدينا في اللغة والشعر والفقه والحديث والتفسير.

إن إظهار مشاعر الخوف على الأمة أو القرآن، من العقل والحركة العقلية ليس فضيلة، بل هو جبن في الفكر، واستبطان للظن السيء بالقرآن والإنسان، ويجب أن يكون محلّ إدانة من غير تردد أو تلكؤ، وذلك للاعتبارات التالية :

1 – إن التاريخ يعلمنا، أن تاريخ الجزيرة العربية كان تاريخ الدوران في المكان حتى أنارت الجزيرة أنوار القرآن، وعندها اتخذت الحركة مساراً خطياً أحرز كل هذا التقدم، والذي تحقق الجزء الأكبر منه بفعل السرعة الابتدائية التي انطلق بها المجتمع العربي بتأثير الفكرة القرآنية. وإن نهاية عقل الاجتهاد (العصر الكلاسيكي) وبداية عصر القيود والضوابط هي بداية ظهور أعراض وعلامات المرض على الجسم الإسلامي، والتي تجلّت في محاولة فرض الرأي وتغييره بالجلد، كما فعل المأمون وابن أبي دؤاد مع ابن حنبل، ولفيف من كبار العقول في الأمة؛ حيث كانوا يجمعون بالأكياس، على ظهور الدواب من بقاع الإمبراطورية التي تسمى زوراً ونعرة بالخلافة، وقد تمّ إنجاز هذا العمل أيام المتوكل، وقد توج هذا العمل حتى أصبح العمل الفكري جريمة يعاقب عليها القانون، ونتج عن ذلك الشلل التام الذي نتج عنه ثقافة عربية ميتة، وإنسان عربي خائف مرعوب يستخدم كل شيء إلا دماغه، وينتظر أن يأتي الآخرون من وراء الحدود كي ينجزوا له واجباته الوطنية؛ كما فعل إخوتنا في العراق من قبل، وكما يتمنى السوريون اليوم.

2 - إن القرآن ليس وهماً يجب أن نحافظ عليه، وليس قصة يمكن أن تشوّه، ولا قطعة ثلج يمكن أن تذيبها حرارة الشمس، إنه حقيقة وجودية بطول ألف وخمسمئة عام، وعرض يساوي جغرافيا العالم الإسلامي، مع امتدادت في جميع أنحاء العالم، وحجم يساوي ربع العالم مع الزيادة المطردة، مع رسوخ يساوي رسوخ السُّنة الكونية. فكلّ خوف عليه يعكس نفسية مهزومة لا تتصل بالقرآن، بل هي أسيرة الثقافة العربية التي أنتجتها الإمبراطورية العربية، التي كانت سرطان الفكرة القرآنية، بينما القرآن هو كتاب الوجود الزاخر بالتحدي المفتوح على الزيادة.

إن هزيمة المسلم الروحية الساحقة، تظهر له توازناً هشاً في العالم كما يتصوره. إن أي حركة تخرج عن القيود التي اعتادها حتى أعاقته، يمكن أن تخلخل هذا التوازن الهشّ، وتجعل العالم يتهاوى، ولهذا يحاول أن يحفظ بعض مقوماته من التهاوي والسقوط.

إن بيت العنكبوت (ثقافة الآباء) التي فات أوانها، ونسعى بكل الجد للحفاظ عليها والاحتفاظ بها، هي التي تتهاوى وليس القرآن، وإذا كنا نظنّ أن القرآن عرضة للضياع، وأنه محلّ تهديد فنحن لم نؤمن أبداً بقول الله "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"، وقوله "إن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون"، ولم نتمكن من السير في الأرض فتكون لنا قلوب بها نعقل، أو آذان بها نسمع، أو أعين بها نبصر، فنفهم قانون الله "كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض".

3 – إن تصورنا أن العالم ناجز وأن المعاني تامة، وما علينا إلا أن نردد ما قيل من قبل، يعني بصريح المعنى أننا نفتقد الأهلية للفهم والعلم، ومن يفتقد هذه الأهلية يستحيل عليه الفعل والإنجاز، ولذلك يجب أن نمارس فريضة التدبر من جديد ، كما أمرنا القرآن؛ نتدبر في القرآن ونتدبر الكون بأمر القرآن أيضاً، ومن خلال إجالة العقل بين الكون والكتاب، تتجلى لنا آيات الله في الكون والكتاب، ونبدأ قليلاً قليلاً بتذوقها ووعيها. عند ذلك يمكن أن يكون للكتاب دور الهادي، وتكون لآياته قيمة النور الذي يخرج الناس من الظلمات، و يوضح الطريق ويهدي سواء السبيل، وكل محاولة للإطلالة على الكتاب من خلال الآباء إضافة لكونها غير مفيدة من الناحية العلمية والعملية، فهي وثنية تجعل القرآن أسير الآباء، وتجعل المطلق في قيد المحدود، وتجعل الله سبحانه وتعالى مثل الآباء أو دونهم، إن القرآن كما وصفه النبي "لا يخلق على كثرة الردّ ولا تنقضي عجائبه"، وهو فوق الزمان والمكان، فأيّ تحريف وتزوير نرتكب عندما نضعه في أسر التاريخي والمتجاوَز، في معظم ما أنتجه الآباء، وكان محكوماً بالشرط التاريخي المعرفي الذي عاشوه.

4 – إن المسلم مخلوق بالطريقة التي خلق بها غيره من البشر من الناحية البيولوجية، أي أنه بلغة القرآن بشر "بل أنتم بشر ممن خلق"، وكل ما لدينا من أفكار ومفاهيم ليست صناعة ربانية، ولا هي مفاهيم الوحي وقد صُبَّت في عقولنا وضمائرنا صبّاً، ولا هي كلمات الله وقد طبعت في قلوبنا ولا شعورنا طبعاً؛ إنما هي ما أنتجه الآباء من تهويد أو تمجيس أو تنصير أو لبرلة أو يسرنة أو يمننة..

ومن ثمّ فلا يوجد فكر يضرب عليه بسور اللامساس، فلا يجوز الاقتراب منه أو التعاطي معه، ولا يوجد فكر يمكن أخذه مأخذ التسليم التام، والقبول الكامل بعجره وبجره، وإنما كل الأفكار يجب أن تمرر عبر بوابة العقل، وبعد أن تجتاز اختبارها تكتسب الأهلية أو تستبعد.

إن عبارة "إدخال الأفكار في الرأس المسلم" توحي بأن الرأس المسلم مُكَوَّد مسبقاً، وأنه يستلم عند الولادة شيفرة، تحدد ما الذي يمكنه التعامل معه أو قبوله، وهذه العبارة وإن كانت صحيحة من الناحية الواقعية، فإنها إحدى نتائج التربية في مناخ ثقافي ميت، وليست ميزة إنسانية ينبغي التمسك بها، إنها مسخ للفطرة لمن يؤمن بمعنى الفطرة، إنها العبودية للبيئة الثقافية التي تشوه عقولنا، وتسدّ أمامنا آفاق فهم الكون والكتاب، وتجعلنا نجتر تخلفنا الشامل الديني والأخلاقي قبل السياسي العسكري، وكأن المسلم محكوم بيولوجيا بأن يكون ضد الليبرالية وضد التجديد، وهو مُصَنَّع بحيث يكون عبداً للتاريخ ومقلداً للآباء، وأن كل إضافات العالم المعاصر محرمة عليه، وإلا فإنه مهدد بالوقوع تحت شرط المجازفة بأصالته، وتضييع دينه. إن بحثاً بهذا المستوى يجهل معنى الإنسان، وهو بكل تأكيد لم يرح رائحة القرآن.

ألغام العمل المدني في سوريا

عاطف عامر

في الشهور الثلاثة الأولى من عمر الحراك السوري، نيسان وأيار بشكل رئيسي من عام 2011، كان هناك منتدى اسمه "منتدى حياة حمص" على ما أذكر، كان الفيسبوك مازال جديداً وكانت إحدى مساحات التنفس في سوريا هي هذه المنتديات. المنتدى المذكور يضم أكثر من ألف شاب وصبية وأغلبهم طلاب وطالبات جامعيين، في الشهرين المذكورين بدأت الحوارات فيما بينهم تأخذ منحى تصاعدياً بتنوع المواضيع، حوارات عن الدين والعلمانية، عن الدولة المدنية، عن القانون وسمو القانون، عن الإصلاح الديني، معنى التنوير، الحرية، المستقبل، دور العلم والمعرفة، الفارق بين العلم الوضعي والعلوم الإنسانية الكبيرة، الكثير من النكات عن انتهاكات النظام، عن غباء وهمجية الجنود.. الخ، لم يكن هناك أي حوارات عن التظاهر أو ضرورة التظاهر أو الحالة السياسية.. وكأن تظاهراتهم هي يومياتهم التي ليست بحاجة للحوار.. كان مفهوم السلمية يسري في عروقهم تكتشفه بين الأسطر المكتوبة، كانت مصر وميدان التحرير قد صنعا وجدان المرحلة تلك.. كانوا وروداً وأكثر من ورود يخاف عليها أي متابع لهم، كانوا حلّاً، وكانوا جديداً في الفقر الصحراوي الذي مرّ على البلاد لأكثر من أربعين عام.. هذا حلّ بمعنى تجذير مقولات، المقولات التي ظهرت فجأة في السماء السورية كانت بحاجة لتجذير، لتبيئة، ولزراعة في الذهن..

كانت جنيناً يحتاج لهدوء النضج، والبعد عن مواجهة ستأكل الأخضر واليابس وتمنع كل نمو..

الحراك السوري العظيم في ذلك الوقت رفع شعارات هي مقولات للفكر أوجبتها الضدية مع النظام، النظام طائفي؛ نادى الحراك الشعبي أن الشعب السوري واحد وضد كل هوية طائفية، النظام عنده تراتبية للمواطنين، الناس طرحت المواطنة ودولة الحق وتطبيق القانون، النظام ناهب وحرامي، الحراك رفع الأخلاق كراية، النظام مستبد، الحراك نادى بالحرية..

نور الناس تحدّدَ بالضدية من ظلمة النظام، وهذه الضدية هي رد فعل، وكل رد فعل لا يمكن أن يكون متيناً.. والكل صار يعرف أن معركة النظام باتت هي تحويل نوْرِ الناس لظلمة تشبه ظلمته..

الناس امتلكت الروح الواجب والقادر على التغيير، الروح المشبعة بالحرية والحقوق، المشبعة باحترام الإنسان والوجود، لكن تلك الروح لم تصمد، تحت عنف النظام انتقلت بالتدريج لتشبهه.. لم تصمد تلك الروح لأنها تحددت بالضدية، ولم تكن مقولاتها مُتجذِّرة في عمق الناس وواقعها، المُتجذِّر هو ما ظهر فيما بعد؛ هو الهوية الطائفية، هو الإيمان بالعنف كحلّ، هو الاستغلال واصطياد الفرص "وملف المعارضة الخارجية على سبيل المثال مليء باصطياد الفرص والانتهازية"..

كان هناك فرصة كبيرة، وككل الفرص التاريخية التي تضيع ويضيع معها الكثير أن تتجذر تلك المقولات أن يمتد هذا الحوار العظيم الذي رأيته في منتديات حمص.. أن.. أن..

لكن المواجهة كانت أكبر من هذا الجنين العظيم..

ذلك العمل الأساسي الجذري والذي هو حل، يتصدره الآن تيارات ومجموعات ومنظمات تحاول أن تجد بيئة للمقولات تلك، تأسيسها وزرعها.. لن ندخل هنا في العامل الموضوعي الذي هو تحدٍّ يُنتج اللاجدوى ومزيداً من الإحباط. بل التركيز هو على العامل الذاتي؛ على الأداة التي تحاول إعادة إنتاج شعارات 2011 على أنها مفاهيم ومقولات منزوعة من المجتمع، محاولة إعادتها وإنتاجها من جديد، هذا العمل مهم وواجب، وهو الممكن الوحيد أمام انسداد نقف أمامه منذ ضربة الكيماوي على الغوطة..

هذا الذاتي/الأداة يعاني برأيي من أربعة ألغام قادرة على نسف هذا المجهود وتذريره وإعدام ما يريد، النتائج من كل عمل عام يمكن أن تنحرف عن الأهداف، ويمكن أن تكون على الضدّ من الأهداف، النتائج في العمل العام ليست ابنة النوايا مهما علا صدقُها، الهدف ينتمي لرغبة الذاتي والنتائج هي في الموضوعي؛ أي يحكمها عقل الموضوع الذي هو ليس عقلي ولا عقلَ أي فرد، يحكمها منطق الواقع والذي هو ليس منطقي الذاتي ولا إرادتي ولا منطق أي منظمة ولا إرادتها.. تصغير الهوة بين الهدف والنتيجة يحددها الفكر، مقدار وجوده، بدون فكر الهوة تكبر وقد أجد نفسي بأحيان كثيرة أخدم عكسَ هدفي "كمثال من أروع الأحزاب التي ظهرت في الثمانينات هو حزب العمل الشيوعي، الحزب الأكثر راديكالية تجاه النظام، لكن هذه الراديكالية بالنتائج قد خدمت النظام وقوّته بدل أن تضعفه".

الألغام الأربعة:

1 - في كتابه عن الإنسان المتمرد، يحدد ألبير كامو المكسب النفسي أو الروحي للمتمرد، للخارج عن واقعه، للثوري، لمن يريد التغيير، أن عند خروجه عن المرسوم اجتماعياً وثقافياً هو يدفع ضريبة تختلف نسبتها، قد تكون النبذَ الاجتماعي أو حياة شاقة مادياً أو السجن السياسي، لكن هذه الضريبة هي الوحيدة التي تنتج هويته، يتعرف لطبيعته الإنسانية التي هي حرية، يبدأ بالمعرفة وقد يُنتج فكراً أو أدباً أو فناً. المتمرد يُنتج؛ بداية يُنتج هويته وهذه الهوية تاريخياً تتحول لوجود لواقع، حجر الأساس في هذه العملية هو معاناته.. المعاناة تُطلق معنى.. التمرد يُنتج القيمة، قول الـ "لا" هو الانتقال من عالم الواقع إلى عالم الحق، التمرد وقول الـ "لا" هو إنتاج المعنى، للحياة معنى غير معروف عند الساكت، المعنى يُعرف في التمرد، التمرد يُنتج وحدة البشر، يُورد كامو مثالاً عظيماً أنك في وحدة البشر تنتفض ضدّ كل اضطهاد، أنك تنتفض ضدّ كل ظلم حتى لو لم ينل من شخصك.. هذا ألبير كامو..

في الفترات الأخيرة بدأ العمل العام يتحول لعمل مأجور، مُمَوَّل، العام له أجر، العام مُحدَّد بأجر، المقال يتحدد بعدد كلماته أي يوضع على ميزان، في المحاضرة هناك أجر للمحاضر وهناك أجر للحضور، أمكنة هذا العمل هي تماهي مع استلاب تاريخي للغني، مشاريب وطعام ومحارم وقناني مياه وطاولات و.. و.. بسكويت وكابتشينو!.. بداية العمل العام والتمرد على الواقع يُنتج راحة وليس معاناة، يُساهم في رغد العيش بدل شقائه، الروح التي تحاول أن تنتج فكراً تموضعت خارج الماهية الإنسانية لتتحول إلى بضاعة قابلة لأن يكون لها ثمن وبالتالي للتبادل.

الروح = سلعة وتُبادل برقم!..

هنا نتذكر ماركس في مخطوطاته العظيمة 1844 أن ضياع الروح هو نتيجة أن عملها يتموضع في سلعة قابلة للتبادل، الروح تدخل قوانين العرض والطلب.. الآن هناك طلب مثلاً على علاقة السهل بالجبل، أو التماسك المجتمعي، أو الجندرة، أو الدستور أو اللاعنف أو المجتمع المدني.. دون دراسة راهنيتها وضرورتها، قد تكون راهنة ومهمة، لكن المقياس هو السوق.. "عندما كان ريف دمشق بالكامل يعاني حصاراً اضطر أهله لأكل قطط، وكان هناك من يتحدث عن قضايا المرأة والطفولة".. نحن نبحث عن روح واجبة للتغيير، في السوق تضيع الروح كما يضيع كل شيء يُراد.. في العلاقة السوية المُنتجة والمُثمرة بين الذات المفردة وبين العمل العام الوسيط الوحيد في هذه العلاقة هو احترام الحقيقة. تَعثُّر العمل العام في العقود الماضية عندما استبدل هذا الوسيط بشهوة الشهرة أو حضور الذات أو التوق لسلطة، الجديد الآن أن الوسيط هو المال.. ولأن الوسيط هو شرط تفاعل طرفي العلاقة (الذات المفردة/ العمل العام)، لذلك هو البيت الذي يسكن فيه الطرفان، وبمعنى آخر هو الإله المعبود من كليهما، أن يكون للحقيقة هذا الدور، أن تكون الوسيط والبيت والإله فهذا هو المنتج تاريخياً للتقدم في حرية البشر والأوطان..

أن يكون الوسيط شيء ما غير الحقيقة، هي بالضبط فكرة هيجل وماركس أن الروح تصنع معيقات نموها، الروح ضدّ نفسها.. الروح تعادي ذاتها.. هذا استلابها، وهنا معركتها بانفكاكها عن كل استلاب..

2 - اعتاد الفكر العربي الذي كانت بدايته في أوائل القرن الماضي أن يبدأ مسائله بعد البداية، هذا الفكر الذي نما في مناخ وضعي عالمي يُمجِّد التقنية والصناعة والنظرة الإيجابية، كارهاً للفلسفة والمجردات والرياضيات مُبقياً منها علم الإحصاء، كارهاً للتحليل النفسي ومُمّجداً للسلوكية والبحث عن طرق إنتاج السلوك "برمجة لغوية عصبية وعلوم غريبة عجيبة همها ابتسامة غبية على وجوه الناس"، البداية الحقيقية هي فلسفة كل شيء، الفلسفة قبل، الفلسفة هي "التفكير في الأفكار"، "التفكير في المقولات"، بدون فلسفة تتحول الأفكار والمقولات إلى آلهة تُعبد، عبادة العلمانية وعبادة الحداثة وعبادة التنوير وعبادة من جهة أخرى للإسلام هو الحل، عبادة الليبرالية.. مقولات تُشحن بالخير المطلق، تميمة صلاة.. الفلسفة تكشف النقص/ السلب في الواقع.. تعلن عدم إيجابيته، تهتم بالسلب وليس بالإيجاب..

فلسفة التاريخ ورؤية نمو الروح وتغيراتها قبل علم التاريخ وأساس له، فلسفة الحق قبل ديدن المدنية وأساس لها، المنطق الرياضي قبل الإحصاء وأساس له.. بدون هذه البداية وكما يقول إلياس مرقص "عندما يدرك الذهن حدّاً من حدود الحقيقة فإنه يركع لها"، وبالنتيجة يقف ويُراوح عندها.. هذه البداية هي الصفر الحامل للانهاية، أي تحديد الأساس قبل الفروع، الفكر العربي يركض للفروع لميشيل فوكو أو سيمون دي بوفوار مثلاً، بدون الأساس ليس هناك فكر. بدون فكر تكون النتائج ضد الأهداف..

أحد الأمثلة على ذلك الحديث عن التماسك المجتمعي قبل فحص كلمة مجتمع، هل المجتمع مجموعة من الأفراد كما تقول أدبيات البعث، أو أدبيات الدعوات الإسلامية؟ وعند صلاح الأفراد يصلح المجتمع.. المجتمع يحيل على العلاقة بين الأفراد وليسوا هم قوامه، العلاقة هي قيامه، قبل التماسك هل نحن مجتمع؟ هل هناك مجتمع سوري؟ أو هو جمع جبري لطوائف وعائلات وأقوام وعشائر.. فحص الكلمات/ المفاهيم والمقولات هو أساس، هذا الأساس يضيع في لهفة الرغبة أن نجعل من عملنا "ثقافة"..

مثال آخر لا يقل خطورة عن سابقه، هو مفهوم المدني وسياقه التاريخي، وظيفة المدني أنه يقطع مع التقليد ومع تجليات التقليد، وظيفته أنه يربط الفرد بذاته ويحرره من ربطه بعائلة أو طائفة أو سلوكيات هي عرف.. المدني في سوريا لم يقطع مع التقليد لم يستطع أن يميز نفسه عن التقليد، هو انخرط فيه تداخل معه، وفي أحيان كثيرة استخدم مفرداته..

المدني عند هيجل وعند ماركس هو أن يكون البشر ذرات متنافسة متصارعة ومتضادة بمصالحها، والدولة الحديثة هي العلاقة فيما بينهم، هي الرابط، العلاقة بين البشر في المجتمع المدني تكون عن طريق الدولة.. هذا السياق غائب بالتمام عن ذهن العاملين فيما يسمونه "منظمات مجتمع مدني"، المدني عندهم هي مفردة مشحونة بالخير والفضيلة والملائكية، وهنا السؤال: في غياب دولة القانون هل فعلاً ما نحتاجه هو مجتمع مدني؟ أو تشكيل سياسي يناضل من أجل قضيته؟ في تاريخ حركات التحرر البشري كان التشكيل السياسي هو الفاعل وهو القادر.. هذا الفقر بالفكر جذره أننا نريد عمل بدون فلسفة وبدون فحص للمقولات المتداولة..

3- في ظل فقدان الانتماء لهوية طائفية أو عائلية وانعدام الحب والشعور العميق بالوحدة، يصبح العطش الأساسي لهؤلاء هو كسر العزلة وامتلاك هوية ينتمي من خلالها، وعندما يكون الدافع السيكولوجي فيه من القوة ما فيه يفرض نفسه كحضور يُنتج سلوكاً، الدافع الحاضر يُذكّر صاحبه بألم الحرمان من الحب والانتماء والهوية، ويُجبره على التمسك والتشبث بكل ما يُنجّيه من هذا الألم، قدمت هذه التيارات نفسها كطوق نجاة للعاملين في حقلها.. هي تمتلك الوصفة، بعيدة عن هويات متخلفة، لها عناوين تثبت ذلك، مع إريك فروم في رحلته الطويلة أن الانتماء كحلّ لكسر العزلة يكون بالتشابه بين أفراد العائلة الجديدة، التماهي فيما بينهم، استقالة ملكة التفكير والنقد لصالح قائد، والضمير هو ضمير هذا القائد، هو الضمير العام للمجموعة، ليعاد إنتاج الشلّة بدلاً من أن يكون تنظيم غناه في تمايز أفراده واختلافهم عن بعضهم.. الذات في ضياعها تبحث عن تعيُّن وعن تعريف، في ألم ضياعها هي ترتد إلى ما وراء بلوغها، يحتلها الدافع القديم المكبوت ويقدم لها الحل، الدافع القديم هو الإقرار بحضورها بين الآخرين، اعتراف الآخرين فيها بأنها مميزة وأنها فريدة، الإعجاب فيها.. والإعجاب فيها هو عند استيلائها على نموذج، تماهيها مع هوية. لإريك فروم التقاط مدهش في وصف هذا السلوك؛ أن الوحيد يكفيه أن يأكل ويشرب ويلبس على طريقة النبلاء على سبيل المثال، ليكسر ضياعه ويتعرف على ذاته أنها تنتمي للنبلاء حتى لو بقي وبشكل حقيقي وحيداً، هذه الهوية سيكولوجيا، ولأنها سيكولوجيا نحن إذا أمام اضطراب نفسي.. اضطراب لكنه جماعي، ولأنه جماعي لا يشعر المريض بمرضه، ولأن الحلّ جماعي لا يشعر المضطرب باضطرابه.. إعجاب متبادل بين متشابهين هويتهم هي هذا النموذج "المدني".. وهذا اغتيال للمدني كفعل ضد التقليد، التقليد يعود من بوابة السيكولوجي..

4 - اللغم الرابع هو إمكانية التحوُّل للضدّ.. في الفلسفة الهيجلية ما قبل العقل هو عالم الفهم، الفهم هو عدم معرفة الحدود، أن الحدود هي محمولات على موضوع أكبر منها بكثير وهو الإنسان، الفهم يقيم الهوية، يرى الواقع جواهر منفصلة، لا يعي جزئيتها، ويحوّلها إلى مُطلقات، هي جزئي، حقيقتها أنها نسبية، يصنع منها الفهم كليّات ومُطلقات عابرة للزمن ومقاومة لفعل التاريخ (النظريات القومية، والعرقية مثالاً، تمجيد وطَوطَمة الحدّ الذي يُعرِّفني وأتعرف على نفسي من خلاله. طوطمة حزب، ثورة، والشعب العظيم، أو الحزب العظيم، طوطمة المدني.. لائحة طويلة للجواهر).

الكلّي الكامن، التاريخي المُغيَّب في وعيهم وراءها ينتقم بسلبها، هذا اللامنتهي الكامن والذي وظيفته تدمير كل منتهٍ، يحوِّل كل هوية جزئية تدّعي أنها مطلقة وكليّة إلى نقيضها، ويسحب منها الروح والمعنى، هذا التأسُّن في مستنقع مملكة الفهم التي هي قبل العقل، والتي ترى تاريخ البشر بعين القوانين الوضعية، والواقع تراه أصنافاً وماهيات وجواهر يتم ترميزها بأعلام وأغانٍ وصورٍ وشعارات، لن يفعل إلا أن يُحوِّل كل منتهٍ لضده.

هي ملاحظات حريصة على جمال الكثيرين وجمال أرواحهم وجمال ما يريدون وليست انتقاصاً، ربما تكون المعركة الكبيرة هي معركة وعي كل شيء..

جائعٌ للحوار.. جائع للحياة

يوسف صادق

المواطن السوري جائعٌ لكل شيء.. جائع لرغيف الخبز بقدر جوعه للفكر الحر والتنوير، جائع للدفء والأمان بقدر جوعه للكرامة والحق والعدالة، وبقدر جوعه للخلاص من ويلات الحرب وأمرائها، جائع للتعبير عن وجوده وكينونته المتلاشية بقدر جوعه للحوار وبقدر جوعه للتخلّص من سجون التاريخ والعادات والاستبداد..

والجوع لا يعرف أولويّةً عند الحرمان من كل أسباب الحياة، هذا ما وصل إليه السوريُّ؛ حرمانه من أمان الحاضر وآمال الغد. عندما تحدّث سعد الله ونوس في يوم المسرح العالمي، تحدّث بلسان السوري المتطلّع للانعتاق من الأوصياء على حرية فكره وتجربته، طالب بهدم جدران الاستبداد بدءاً من السلطة الأبويّة الموروثة في تاريخنا، والحاملة لاستبداد سياسي وديني، وطالب بهدم جدران الوصاية في الأحزاب وعقائديّتها وعصبويّتها وشوفينيّتها ومآرب المتسلّطين فيها.

طالب بهدم جدران وصايا المتديّنين على العباد، وكفّ يدهم عن الوساطة مع الخالق، وإيهام العباد وتبعيّتها العمياء، وطالب بهدم جدران الخوف العالية في الذات الإنسانية قبل أن تعلو جدراناً من الحديد، يقبع خلفها كلُّ ذي رأي وكرامة..

كل ما فعله ونوس أنه طالب بالانفتاح وانعتاق الإنسان الحر من عبودية الذات وسجونها التاريخية والجغرافية ليشمل الحوار كل المجتمع الإنساني ومصيره المشترك. لعلّه اختصر حكاية السوري في ظل الاستبداد، حينما يصبح الجوع للحرية بوصفها دافعاً ونزوعاً أصيلاً لدى الإنسان، متزامناً مع أرقى ما أنتجه، يكون الجوع عودة لبدء، عودة لذات الإنسان ومركزيّته في الكون والمجتمع.

هذا الكلام يدركه المعتقل في سجون النظام، بل يعيه بكل جوارحه، ويعي المعادلة النافية والطاردة بقدر تكافؤها وتلازمها بين رغيف الخبز والحرية. نافية وطاردة جدلياً لأنه يدرك أنها نهج الأنظمة القمعية؛ فبقدر التغوّل بالعنف بكل أشكاله، يقل ويضمحلّ الإحساس بالذات وعنفوانها، وتصبح الذات أسيرة غرائزها وأيديولوجيتهاالانتكاسية، تصبح على حد تعبير الكواكبي (سيرة)، ممّا يجعلها طاردة ونافيةً للمكافئ وهي الحرية، ليس هذا وحسب بل لكل أشكال الليبرالية والانفتاح على الآخر، بل وللاعتراف بالحقيقة الموضوعية؛ فغرائز الذات تصبح (تابو) تعمل عمل التعمية عن تحقيق ما يجب أن تكون عليه، فتنكفئ على عصبويّتها، وقد تكون بأشدّ وحشية وبهيميّةٍ كما هي حال المجرمين والمدمنين على القتل والتعذيب، إذ تنفي الآخر وتطرده ليس من حياتها بل من الحياة والوجود. فلا انوجاد إلا لنكوص الذات، أمّا هزيمتها كذات فاعلة إنسانية ، فهي الإمعان والتماهي أكثر مع المتسلط بأساليبه وحياته. أمّا المطرود الآخر فهو المشاركة عامةً أو وجدانيّةً اجتماعيّة وهذا ما يفسّر العزوف عن الهم العام والسياسة، وكل ما هو متعلق بالوجدان العام، وليست السلبية إلّا أقلّ أشكالها ظهوراً لدى الأشخاص في المواقف العامة.

المتسلط يدرك مآلات معادلة رغيف الخبز والحرية، بل خبرها وتفنن بممارستها، ويستمتع بالتحوّلات التي تصيب الذات من مستقلة فاعلة حرّة ذات إرادة، إلى تابعة سلبية ذات أيديولوجيا وعصبيّة، يدركها كما يدرك مروّض الخيول الفرق والنفي بين حصان أصيلٍ يعيش في البراري وبين حصان يقوده حتى إلى الهاوية. كما تختصرشخصيةً يطرحها أيمن العتوم في رواية يسمعون حسيسها. عندما يخرج السجين/ المعتقل من السجن يلوّح لجلّاديه، فقد ألف واعتاد السجن بكل ما فيه، حتى صار بكينونته جزءاً من نظامه وبنائه؛ فالذلّ جزءٌ من نظام الاستبداد، وهدر الكرامة أساس للبناء، وسياسات التجويع والاحتقار أعمدةً تعلّق عليها الأعلام، والقتل والوحشية جدران تعلّق عليها صور المستبدين والطغاة.

كم نحتاج لدراسة ما آلت إليه الحرب في سوريا؟وكم نحتاج لإدراك وسبر أغوار نفس الإنسان السوري بعد عقود من الاستبداد؟ثم كم نحتاج الآن بإلحاح للإجابة بل لمحاولة فهم ما جرى من خذلان وهزيمة بعد أكثر من عقد على ثورته!

التطورات الأخيرة في الشمال المحرر بين قوسين، المحرّر من النظام السوري، والمحتل من أنظمة ليست مغايرة عنه. أمراء الحرب والمتطرفون، والعنف وسحق الصوت المعارض، واعتقال أصحاب الرأي وناقلي الحقيقة، وليس أخيراً فرض أيديولوجيات دينية وعقائد عسكرية، ومن ثم التجويع والفساد والأتاوات والبلطجة.. كل هذا عناوين معاشة يومياً يدفع ضريبتها حتى النازحون في الخيام، إذ لا يسلمون من شرور المتحاربين على المكاسب وتقاسم النفوذ على الأرض ومعابر التهريب، حتى لا يسلمون من التبعية والولاءات سواء كانت للدول المحتلة أو للنظام وحلفائه.

فإن أرادت تركيا تحصيل مكسب ما أو أرادت روسيا ذلك فسكان المخيمات هم من يدفعون الثمن، كما حدث في مجزرة مخيم (مرام).

لنتساءل هل هذا هو الشمال المحرّر؟ هل هو البداية لتحرير باقي الأراضي السورية لتصبح على شاكلتها، إمارات وولاءات وقمع وفساد؟ هل هذا هو المستقبل السوري ومستقبل الثورة؟

والسؤال الآخر عن الجنوب ليس أقلّ شأناً، فليست المشكلة بإحداث داعش من قبل النظام للقضاء على أي محاولة للتمرد على نظامه، بل المشكلة فيمن يتبعون داعش وهذا التساؤل خطيرٌ.

أمّا عن السويداء التي ماتزال تخطو نصف خطوةٍ ثم تعود خطوتين ممكّنة النظام من إعادة سطوته الأمنية وإحلال الفوضى شريعةً للبقاء.

وليس أقلّ شأناً ما يحصل لدى الإدارة الذاتية في الشمال الشرقي بين مشابهة للنظام البعثي الأمني، وبين ضياع البوصلة في تحالفاتها الدولية على حساب شعبنا السوري هناك ومكوناته الإثنيّة والقومية.

كل ما يحصل في أرجاء سوريا ليس بالتأكيد هو النهاية، كما أكّد سعد الله ونوس في خطابه بيوم المسرح، وما زال الجوع للحوار بقدر تكافؤه بالجوع لرغيف الخبز. بحاجة إلى أن يحسّ الإنسان السوري بالشبع بقدر إحساسه بمعاني الحرية، حتى يشعر أن الكرامة هي ذاته الإنسانية وليست قيمة مضافة، أو طبعاً موروثاً عن الأجداد.

هي حقّه الذي تستحقه الذات البشرية كما كرّمها الله وكانت أساس الشرائع والدساتير والفلسفات.

بحاجة إلى الوعي أن ذواتنا تستحق وكم هو المشوار صعبٌ وطويل.

من قلب سوريا: برهة مغايرة للموت!

جمال الشوفي

في منطقة تشبه جزيرة وسط بحر؛ لا هي جزيرة ولا محيطها بحر، رغم أنها في بحر من القحط والسوء والكوارث المجتمعية والاقتصادية والسياسية والقيمية. هي ليست موقعًا جغرافيًا ما وحسب، بل مكان يعاكس تيار الانحدار والهزيمة الحادثة في سوريا، والأهم أنها لا تدعي فعلًا سحريًا ولا عملًا ثوريًا أسطوريًا. بل موقعاً يجمع في زمن مستقطع ثلاثية الماضي والحاضر والمستقبل في كل فعل، مكان يجمع:

- عبق التاريخ الوطني حين كان الوطنيون سند بعض، يقدرون قيمة بعض، يدركون معنى الوطن والاستقرار والثقة والجدارة والمسؤولية.
- قيمة حضارية في حب التعليم وفعل الخير ومساعدة الطلاب ومتابعة تعليم غير القادر منهم في ظل الظروف القهرية التي يعيشها الشباب السوري اليوم.
- قيمة إنسانية في حدودها العليا، والمتّسمة بتعليم ذوي الاحتياجات الخاصة من متلازمة داون. وقصة بقاء واستمرار رغم كل ظروف سوريا المعقدة.. استمرار الحوار والاختلاف والانفتاح الثقافي، وتداول اللحظي والآني في الشأن السوري والعالمي. بقاء الروح المتعلقة بالأمل رغم كل اليأس والإحباط، والبحث الحواري في غد أفضل لسوريا وللسوريين، وإن لم يكن هذا المستقبل قريب الحدوث، فهي قصة معنى ووجود مغاير لحجم التهشيم والدمار الكارثي الذي تعيشه سوريا منذ أعوام.

ليس فندقًا، ولا قصرًا ذا حدائق ليتسع لكل هذه الفعاليات. هو بيت من حجر أسود يعود عمره للعام 1954، بناه المرحوم قاسم أبو خير المتوفى عام 1959، أحد رجالات وأركان الثورة السورية الكبرى 1925، في قلب مدينة السويداء. وأتم أبناؤه بناءه لشكله الحالي، مما قدمه محبةً ومساعدةً لهم أحد رجالات السياسة والدولة في سوريا المرحوم شكري القوتلي. ليحافظ عليه أبناء المرحوم قاسم لليوم مكانًا يتمثل فعل الخير وعمق العلاقة الوطنية بين رجال السياسة ورجال الثورة، وزكاة عن روحي المرحومين قاسم أبو خير وشكري القوتلي. فيما كان بالإمكان استثمار موقعه وبيعه لأي يد أجنبية بأسعار خيالية، وبناء مشروع تجاري مكانه تحت عنوان إعادة الإعمار، كمثل تلك الأماكن الأثرية في مناطق سورية متعددة يتم بيعها قسريًا أو غبنًا لصالح شركات روسية أو إيرانية!

اليوم، وفي ظل كارثة وطن بأكمله، سياسيًا واجتماعيًا واخلاقيًا، وإفلاس الحلول السياسية والاقتصادية للمسألة السورية، في ظل تهجير الشباب السوري الممنهج وإفراغ البلد والديار من سكانها. اليوم يقاوم هذا التاريخ بحجره الأسود تيار الانحدار هذا. ففي البيت ذاته تعمل مجموعة تطوعية للعمل الإنساني متعدد الاتجاهات. منها مساعدة الأسر المحتاجة التي تعوزها سبل الحياة والمعاش، وتقديم المساعدات للطلاب المحتاجين وفق دراسة عامة تقدم للأكثر حاجةً وتضررًا دون تميز جنسي أو مذهبي أو سياسي موجه.

الإنسانية تجمعنا

تستقطب المساعدات من كل السوريين النبلاء المشتتين في أرجاء المعمورة. مساعدات لا تشترط سوى النجاح في العلم وتقديم ذات المساعدة بعد أن يتخرج الطالب. ولطالما تحدثت المنظمات المدنية عن استدامة المشاريع، وهذه استدامة للخير والإنتاج ورعاية الشباب دون تمويل أممي تذهب النسبة الأكبر منه لرعاة المنظمات الأممية، فيما الواصل منه للداخل السوري تتقاسمه السلطة القائمة بمنظماتها الوهمية التي أشارت تقارير عدة لفساد مالي فاضح فيها وصل ملايين الدولارات، والعديد من المشاريع التي تكاد تكون على حجم فريق عمل صغير قلما يهدف لعلاج مشكلة في الواقع الحالي، بل إن غالبيتها عنوانها البحث في مستقبل سوريا، أما حاضرها فمتروك للعبث والمرارة.

في الغرفتين الأخريين، وبمبادرة من مجموعة تربوية تأهيلية، من ذوي الاختصاص في التعليم والفرح، احتضنت هاتان الغرفتان مجموعة من الأطفال والشباب المصابين بما يشخّص بمتلازمة داون.

نادي الفرح لمتلازمة الحب

تقوم المجموعة على توزيع الفرح وبث الأمان والحب في نفوس هذه الشريحة المهمشة مجتمعيًا. يتعلمون العزف والرسم والألوان، يمارسون بعض المهن الحرة كتصفيف وقص الشعر، يتعلمون القراءة والكتابة، ويقدمون الحب غير المشروط لكل زائر لهذا المكان. فسمي بـ "نادي الفرح لمتلازمة الحب". أليس هذا تعافياً مبكراً في الحياة؟ كما تريده المنظمات الأممية من خلال اقتصاد التعافي مغروض الهدف والمفتقر لأليات التنفيذ؟ أليس هذا عملاً إنسانياً يضاهي أي فعل إنساني أقرته الشرعة الدولية لحقوق الإنسان، وثقافة الليبرالية والحرية والاهتمام بالإنسان والحيوان! أليس ركيزة لبناء السلام المجتمعي!

مشتل الأصدقاء!

أمام البناء أرض ممتدة، شتلات من الزرع متعدد الأصناف: نباتات الزينة المنزلية، شتلات الزراعة الحقلية، نباتات البيئة الصحراوية من الشوكيات، وكأنها تعويذة أمل لمقاومة جفاف حياتنا التي نعيش. مشتل زراعي يقوم على رعايته أحد المفصولين أمنيًا من وظيفته التعليمية منذ العام 2007 لأنه من موقعي إعلان دمشق- بيروت لحرية الرأي والثقافة. وليس هذا فقط، بل بات المكان موقع تجمع لكل الأفراد المقبلين على الثقافة والحوار الوطني والسياسي، من كل الأصناف؛ فبات اسمه "مشتل الأصدقاء". أفراد بخلفياتهم المتعددة سواء كانوا من المستقلين والحقوقيين، ناشطي المجتمع المدني وحقوق الإنسان، ناصريين وبعثيين وماركسيين، وحتى بعض رجال الدين. مكان يجتمع

البقية في صفحة 17

هل يتفوق الرجل على المرأة؟

رسلان عامر

في مجتمعاتنا العربية، ما تزال هذه الفكرة -أي فكرة تفوق الرجل على المرأة- شائعة، ولديها الكثير من الأنصار المتحمسين الذين يدافعون عنها بشتى السبل..

فما هو الأساس الذي يعتمد عليه أصحاب هذا الرأي؟

العديد منهم يقول إن الأساس واضح، وهو سيطرة الرجل على المرأة منذ عشرات القرون، ولو لم يكن الرجل متفوقاً على المرأة، لما أمكن له وفي معظم مناطق العالم أن يسيطر عليها ويتحكم بها على مدى هذه الآلاف من السنوات!

فكيف يمكن الرد على هذا الرأي، الذي يمكن أن يبدو للوهلة الأولى واقعياً؟

في الواقع هذه السيطرة الذكورية التي يتم الحديث عنها هي نوع من أنواع "الغلبة" التي تعتمد بحد ذاتها على نوع من أنواع القوة، وكل قوة لها طبيعتها الخاصة، وميدان فعلها وتأثيرها المرتبطين حصرياً بهذه الطبيعة، وليس بالضرورة أن يكون الأقوى هو الأفضل، ولكنه قد يكون "صاحب أفضلية" في نطاق قوته هذه.

إن وحشاً في غابة -على سبيل المثال- يستطيع أن يصرع أذكى وأشجع الناس.. حيث لا يمكن للذكاء أو للشجاعة المجردين أو كلاهما معاً أن يكونا ذوي مفعول، ففي الغابة يسود قانون الغاب، وهو يقوم على أساس "الصُرعة"، فيتغلب الأقوى بمفهوم الغابية أو القوة الوحشية.

أما حيث يمكن لـ "قوة الذكاء" أن تأخذ مجراها، فالإنسان يستطيع أن يتغلب على أقوى الوحوش، وهو اليوم يصطاد حتى الحيتان، ولو لم تنقرض الديناصورات، لأمكن للإنسان بقوة ذكائه أن يصطادها أو يروضها.

واليوم في العلم المعاصر، في الكثير من الدول، كثيراً ما تسيطر طغمة قمعية فاسدة على المجتمع والدولة، فتحكمهما وتتحكم بهما، وتقصي الحكماء والشرفاء والعلماء والأذكياء والشجعان وجميع أصحاب الصفات الحميدة والكفاءات الرفيعة الأخرى، فهل تعني غلبة هذه الطغمة أن هذه الطغمة هي الأفضل؟!

الجواب الأكيد هو "لا"، فهذه الطغمة تتغلب عادة بسبب تطبيقها هي الأخرى لـ "قانون الغاب" وفرضه قسراً على المجتمع البشري، وتحوله إلى غابة؛ فتتغلب بشريعة الوحوش على كل من يتصرف فيه بنواميس الإنسان.

شيء مماثل يمكن قوله عن سيطرة الرجل الذكر التي لم تكن دوماً الخيار الوحيد للتاريخ البشري، الذي عرف حقبة أسبق كانت السيادة فيها للمرأة، ولم تكن عندها هذه السيادة قائمة على التفوق في القوة الفيزيائية، وإنما كانت مرتبطة بشكل رئيس بدور المرأة كأم.

إن وجود المرحلة الأمومية بحد ذاته يكفي لإبطال دعوى تفوق الذكر بناء على سيطرته التي بدأت في لحظة ما في التاريخ القديم، ولم تنته بعد حتى في عالمنا المعاصر. فوجود مرحلة تاريخية كانت السيادة فيها للنساء يسقط مقولة سيادة أحد الجنسين على الآخر على أساس امتلاك هذه السيطرة على أرض الواقع في عصر محدد ما.

في العصر الذكوري كانت القوة، وبشكل خاص القوة البدنية هي الفيصل، ففي المجتمعات البدائية حيث تكون هذه القوة ذات أهمية قصوى في الإنتاج الاقتصادي كالصيد والزراعة، وفي الدفاع ضدّ الأعداء البشريين الآخرين وضد الحيوانات الخطيرة، وفي حسم الخلافات بين البشر الذين يعيشون معاً.. الأفضلية تكون للرجل؛ فالرجل هو الأقوى بدنياً في الحالة الاعتيادية، ويضاف إلى ذلك أنه ليس لديه فترات مرتبطة بطبيعته الجنسية تضعف قوته كثيراً كما هو حال المرأة، التي لديها فترات حمل ونفاس وإرضاع ورعاية أطفال، تكون فيها غير قادرة على القيام بالمهام الأمنية والاقتصادية وغيرها من الأمور المعيشية الضرورية، فتصبح مجبرة على الاعتماد على الرجل، ويصبح الرجل هو القائم بمسائل الإعاشة والحماية، ويضاف إلى ذلك أفضليته في القوة البدنية الشخصية على المرأة، حتى في حالتها الاعتيادية التي لا تتدنى فيها قوتها هذه بسبب أدائها لوظائفها النسوية المذكورة. وهذا كله يعطي للرجل الإمكانية لأن يصبح المسيطر على مراكز القوة في علاقته مع المرأة، سواء على نطاق الأسرة أو على نطاق المجتمع!

وهكذا عندما أصبح الرجل هو المتحكم على نطاق كل من الأسرة والمجتمع، أصبح بمقدوره أن يقصي ويهمش المرأة، ويقلص وجودها بقدر ما يشاء، ويضعها في الموقع أو القالب أو الحد الذي يناسبه، وقد استمرت هذه الحالة طيلة الفترة التي كان بها المجتمع البشري شبيها بمجتمع الغاب، وهي حالة لم تنته بعد، ولن تنتهي في المدى القريب، وما تزال مستمرة حتى في عالمنا المعاصر، الذي ما تزال أكثرية مجتمعاته تغلب عليها شريعة الغاب، وإن تباينت الدرجات.

بالطبع لا يمكن فقط ربط سيطرة الرجل على المرأة فقط بعامل الأفضلية في القوة البدنية التي امتلكها في ظروف المجتمع البدائي، ولا شك أن هذه العملية لم تكن عملية بسيطة، ولا يجوز فيها إغفال المتغيرات الثقافية ودورها الفعال أيضاً، ولكن هذه المتغيرات هي نفسها تبقى متأثرة بغيرها من ميادين الواقع ومؤثرة بها بقوة، فالمجتمع ككل كلية متكاملة.

وخلاصة القول هي إنه لا وجود بتاتاً لأساس ثابت يمكن بموجبه الحكم النهائي بتفوق أحد الجنسين على الآخر، وما يحدث على أرض الواقع من هذا القبيل هو ظرفي تماماً، ومرتبط كلياً بظروف واقعه، ويتغير تبعاً لتغيرها.

سورية في لاءات الحرية

قراءة حواس محمود

كتاب مهم للمفكر الدكتور أحمد برقاوي صدر حديثاً عن موقع أورينت نت بعنوان "سورية في لاءات الحرية" يتحدث فيه عن ثورات الربيع العربي عامة والثورة السورية خاصة، ويفرد لها فصولاً عديدة، لشرح الالتباسات الفكرية والايديولوجية والمسلكية التي رافقت وترافق مسيرة الثورة السورية وقوى المعارضة والنظام السوري، ويحدد نقاطاً لكيفية تجاوز الشعب السوري ما يعيقه عن استكمال ثورته المباركة.

يرى المؤلف أن سوريا مجتمع الشرارات وهو مجتمع الهشيم بكل أنواعه؛ الهشيم الذي تراكم عبر عقود من الزمان والعماء السلطوي - الجاهل بالتاريخ - كان ينظر إلى تراكم الهشيم على أنه نوع من الاستقرار والاستسلام المطلق من قبل البشر لواقعهم ، لم يسمح العماء السلطوي للسلطة أن ترى الاستنقاع الجاهل لأنها ما كان لها أن تميز بسبب عمائها التاريخي بين الاستنقاع والاستقرار.

ويتحدث المؤلف عن الجماعات العصبية التسلطية واختلافها بين قطر عربي وآخر، وبخاصة في الأقطار التي حدثت فيها حراكات الربيع العربي. وفيما يتعلق بالنموذج السوري للعصبية التسلطية والذهنية الحاكمة يراها المفكر البرقاوي أنها مختلفة عن العصبية التسلطية اليمنية والمصرية والتونسية والسودانية والليبية؛ حيث تكونت الجماعة التسلطية بالتدريج منذ عام 1963 لتصل إلى عام 1970، عصبية قوامها الطائفية التي بدورها تطورت في فترة طويلة من الزمن لتخلق ذهنية الطائفة التسلطية، ويراها أنها أعقد من العصبيات التسلطية الأخرى.

يقول المؤلف أن سوريا بعد تجربة الاستبداد الطويلة لا يمكنها أبداً أن تتحمل استبدادا من نوع آخر، كما أن القوى الأصولية العنفية صورة مشابهة للجماعة الحاكمة وميليشياتها المحلية والمستوردة. وسوريا لا يصلح لها نظام سياسي إلا النظام الذي يقوم على الاعتراف بالتنوع والحق في التعبير عن هذا التنوع، الدين الشعبي السوري لا علاقة له بالسلطة الدينية السلطة الدينية لا دخل لها بحياته وعلاقاته وتجارته وعاداته وأفراحه وأزيائه وحبه للحياة.

ويصل المؤلف إلى خلاصة متمثلة بقوله: "ولهذا فالتفكير بمستقبل سوريا يعني التفكير باستعادة ماهية سوريا التي دمرها الاستبداد الغريب عن روح السوري"، ويرى أن الاحتلال الروسي لسوريا لم يأت كرمى للون عيون بشار الأسد، وكذلك الاحتلال الإيراني والتركي والأمريكي، وأن القرار السوري المستقل لن تنجزه إلا حركة سورية مستقلة تلقى التأييد الشعبي العربي والعالمي، وتغدو نداً وليس أداة لهذا أو ذاك.

ويرى أن "الصراع على البلاد " أي سوريا، كان ومازال يحتاج الى أطراف داخلية تكون جزءاً من "قوى الصراع الخارجي تلبس قناع الصراع من أجل البلاد" ودول النفوذ كلما رأت حالة "صراع من أجل.." تدخلت كي تمنع الإرادة الداخلية من الاستقلال، هذا الأمر يؤكده ما حصل ويحصل في فلسطين ولبنان وسوريا والعراق.

ويشير المؤلف إلى أن دولاً تدخلت في محاولة إجهاض الثورة السورية كإيران وروسيا والصين لأنها كانت ثورة من أجل سوريا، فحولت الوضع إلى الصراع على سوريا، وتدخلت دول أخرى أيضاً لإشعال هذا الصراع متمثلة بأمريكا وتركيا، وفي الوقت الذي كانت فيه القوى الديموقراطية تبحث فيه عن دعم لها من أجل سوريا كانت القوى الميليشياوية تعمل من أجل المطالبة بالدعم لها بمنطق الصراع على سوريا، لأن الثورة من أجل سوريا هي خطر على كل الأطراف التي تفكر وتسلك وفق منطق الصراع على سوريا.

وفي فصل بعنوان "سورية وسلطة الوهم المسلح" يتحدث المؤلف عن أن سوريا اليوم تشهد نمطين من العنف يمارسان التدمير بكل أشكاله، وأن هناك نوعين من الوهم -1عنف الوهم السلطوي -2عنف الوهم المقدس؛ فحين انتصرت المصادفة التاريخية المزعجة وانتصرت مؤسسة عسكرية ضعيفة الولاء، ذات إرث فلاحي طائفي ثأري، يقدس السلطة، وليس في ثقافتها إلا فكرة القوة المطلقة، تولد لديها الوهم بأنها قادرة على تجميد حركة التاريخ عبر القوة المسلحة، واستخدامها في أشد أشكالها همجية. ويضيف المؤلف قائلاً: "ولقد اعتمل هذا الوهم سنين طويلة في ذهن الحلقة الحاكمة وأشياعها، وإنتاج وهم كهذا خلق حال استرخاء وطمأنينة وفجور في الممارسة السلطوية، ووهم تجميد التاريخ مرض عضال عند جميع الدكتاتوريين الحقيقيين أو أشباه الدكتاتوريين، والمشكلة أن البرء من الوهم السلطوي هذا عملية صعبة، ولهذا ما إن كسر الواقع، واقع الهبة الشعبية هذا الوهم حتى جرد الوهم قواه دفاعاً عن بنيته المترهلة والتي لن تعود إطلاقاً، فكانت مأساة القتل والتدمير والتعذيب".

ويحدد المؤلف ثابتاً واحداً ويجد فيه أنه يجب أن يكون مشتركاً عند أطياف المعارضة، وهو الرفض المطلق لبقاء الجماعة الحاكمة ورأسها، لأن حجم الجريمة التي ارتكبتها لا مثيل له في تاريخ الشعوب، والرفض المطلق لجبهة النصرة التي قضت على إمكانية تحول الجيش الحر إلى قوة فاعلة في تحديد المصير، ولأنها حركة نكوصية لا علاقة لها بمفهوم الدولة المعاصرة، وإنتاج عقل يفكر على هذا النحو يعني بالضرورة إنتاج جبهة سوريا موحدة حول الأهداف الكبرى.

وفي فصل بعنوان "قطاع طرق التاريخ مرة أخرى" يشير البرقاوي إلى أنه في التاريخ هناك قطاع طرق داخليين وخارجيين، وبالنسبة لسوريا التي اشتعلت فيها ثورة شعبية كبرى لتحقيق الحرية والعدالة والكرامة فإن النظام قطع الطريق أمامها واستجلب قطاع طرق إقليميين كإيران وعالميين كروسيا، كما أن قطاع طرق آخرين دخلوا على الخط كأمريكا وتركيا، ناهيك عن قطاع طرق الإسلاميين كداعش والنصرة وهما الأخطر من بين قطاع الطرق المذكورين آنفا.

كتاب البرقاوي كتاب فكري قيم غني بالإشارات والحيثيات والتحليلات الفكرية العميقة، ودحض لمقولات السلطة عن الثورة والثوار، وهو يدافع عن الثورة كمسار تاريخي لابد منه للقطع مع ثقافة الفساد والاستبداد، نحو مجتمع الحرية والكرامة والعدالة والتنمية.

تراجع زراعة التفاح في ريف إدلب الغربي

علي الدالاتي - إدلب

"افتقدت إلى مقومات العيش والاستمرار لكننا نحاول أن نتدارك هذا بالإمكانيات المتاحة". كان أبو محمد يردد هذه الكلمات وهو يسابق شروق الشمس ليبدأ العمل في كرم التفاح الخاص به على أطراف بلدته بداما في ريف إدلب الغربي. وهو الذي دأب على ممارسة هذا العمل برفقة والديه ثم زوجته منذ ما يزيد عن 50 عاماً.

ويشتكي أبو محمد كما باقي مزارعي بلدة بداما، جملةً من المشاكل التي تعيق عملهم في زراعة التفاح، مع بداية كل موسم زراعي، حيث يبدو للحرب أثر كبير وبصمة واضحة، إضافة لارتفاع أسعار البذار والمحروقات، وغياب أسواق التصريف، ومنافسة المنتج التركي للمنتج المحلي.

معطاءة لا تقبل الإهمال

تعتبر زراعة التفاح في بلدة بداما المصدر الرئيسي وشبه الوحيد للدخل المالي للأهالي قبل الثورة السورية في عام 2011، ومع بداية الثورة بدأت زراعة التفاح بالتراجع سنة بعد سنة، وفق المهندس الزراعي "نوري حج خالد" الخبير الزراعي. وأضاف حج خالد: "من المعلوم أن شجرة التفاح لا تقبل الإهمال؛ فهي شجرة معطاءة وذات ناتج ممتاز في حال وجدت الخدمة الزراعية. وكلما زادت خدمة الأرض التي توجد فيها هذه الشجرة كلما زادت كمية الإنتاج".

وتابع المهندس نوري مستطرداً: "وصل إنتاج الهكتار الواحد قبل عام 2011 لأكثر من 100 طن من التفاح، وهذا معلوم لكل من عمل بهذه المهنة، أما اليوم ومع مرور السنوات انخفضت كمية الإنتاج أكثر من 75 بالمئة، وذلك بسبب الإهمال الذي حصل لهذه الشجرة".

ويعود سبب الإهمال والتراجع إلى وجود المنطقة في خط المواجهة مع قوات النظام، مما أدى إلى تعرض المنطقة للقصف بشكل يومي ومكثف، ما أدى بدوره إلى حرق الأراضي الزراعية المزروعة بأشجار التفاح، وتدمير البنية التحتية الزراعية فيها".

وبحسب أهالي المنطقة فإن قصف الأراضي الزراعية كان ممنهجاً وبقصد تهجير الأهالي خارج البلدة، فهذا ما حصل ولأكثر من مرة؛ حيث اضطر معظم الأهالي لترك البلدة خوفاً من القصف. وكان النصيب الأكبر من الخسارة هو ما لحق بشجرة التفاح التي تعني الكثير بالنسبة لأهالي بداما، كونهم عاشوا مع تلك الأشجار وأحبوها، وهي بدورها بادلتهم الحب. ولكن بعد الأيام العجاف التي خلفتها الحرب أصبحت معظم أشجار التفاح في عداد الموتى بعد هجرها من أصحابها، وعدم الاعتناء بها بسبب القصف المكثف على المنطقة".

أسباب اقتصادية لتراجع زراعة التفاح

ويرجع الخبير الزراعي "حج خالد" سبب التراجع في زراعة التفاح، إلى عوامل اقتصادية؛ ويقول: "السبب هو تغير البيئة التي أصبحت مفروضة على مزارعي التفاح، من نزوح بعض الأهالي إلى خارج البلاد (تركيا وأوروبا وبعض الدول العربية وغيرها)، إضافة لقلة ذات اليد للمزارعين، لعدم وجود دخل مالي يتوافق مع المصاريف اليومية، فلا يتبقى مال لتقديم خدمات لشجرة التفاح من سقاية وتغذية وغيرها، هذا بالإضافة لصعوبة السيطرة على الآفات التي تصيب الأشجار، واستعمال المبيدات غير المجدية (الصينية) وغير المراقبة والتي كانت سبباً في تزايد الأمراض وتدهور مواسم التفاح المتبقية في المنطقة. كما أدى إغلاق معظم الأسواق التجارية أمام المزارعين لصعوبات إضافية".

مشكلات زراعية وتكاليف مرهقة

بدورهم تحدث بعض مزارعي التفاح في بداما لطلعنا عالحرية بأن التكلفة المرتفعة نظير الاهتمام بشجرة التفاح أرهقتهم، إلا أن موجات الصقيع العام الفائت، أثرت بشكل كبير على الإنتاج، وعرضتهم لخسائر كبيرة. وأضاف البعض: "واجهنا الخسارة لوحدنا، فلا تعويضات من أي جهة داعمة".

لا تقتصر المشكلة عند مزارعي التفاح في بداما بما سبق؛ فالجميع يشير إلى أن غلاء الأسمدة، وارتفاع أسعار المحروقات، وكذلك أسعار المبيدات الحشرية ونوعيتها الرديئة، كانت عوامل لعبت دورها هي الأخرى.

العم "أبو محمد" وهو مزارع في المنطقة قال لطلعنا عالحرية: "احترقت معظم الأشجار نتيجة قصف قوات الأسد المتعمّد على البلدة، يعني أننا أمام غياب فرصة إحياء الشجرة، وضرورة إعادة زراعة الأرض بها، مع احتمال خطر القصف غير المستبعد".

وبعد توقف العمليات العسكرية نتيجة التفاهمات التركية- الروسية لم يتغير الأمر كثيراً، بحسب العم "أبو محمد"؛ فالمشاكل ما تزال قائمة، والتي لخصها بقوله: "التكلفة المرتفعة، وغياب الدعم".

ووفقاً للعم "أبو محمد" تعرضت بلدة بداما لقصف ممنهج من قبل قوات النظام المتمركزة في جبال ريف اللاذقية؛ أسهم في احتراق مساحات زراعية شاسعة، وخسائر فادحة للمزارعين.

وأضاف: "لانزال نخشى عودة التصعيد.. لا يوجد أمان.. ولم نعد نتحمل المزيد من الخسائر المالية.. والغلاء المعيشي واضح كما تعلم".

ويرجح أهالي المنطقة أن عودة الاستقرار للبلدة دفع نحو 900 عائلة للرجوع إلى منازلهم وأراضيهم، ويقدر هؤلاء مساحة الأراضي المزروعة بـ 5500 دونم.

غياب الرؤية الاقتصادية

بدوره قال الخبير الاقتصادي، معاذ بازرباشي لطلعنا عالحرية: إن "غياب الرؤية الاقتصادية في المحرر، رغم خفض التصعيد والهدوء النسبي للعمل العسكري، أرخى بظلاله على إنتاج شجرة التفاح، إضافةً لمنافسة نظيرها التركي في السوق".

وتابع: "نفتقر إلى خطة حقيقية، لتطوير الواقع الزراعي عموماً، وهذا يحتاج إلى جلسات وتنسيق على مستوى عالٍ من جميع المعنيين، في مجالي الزراعة والاقتصاد، للخروج بصيغة وآلية عمل تعيد إلى تلك الزراعة تألقها، فضلاً عن كونها ستحقق دخلا للفرد والمنطقة".

بدوره يقول "حمزة أبو أحمد" أحد أهالي المنطقة: "منطقة بداما يتبع لها 30 قرية ومزرعة، كلها كانت تشتهر بزراعة التفاح، لكنها تراجعت بنسبة 80 بالمئة، بسبب الحملات العسكرية التي تعرضت لها المنطقة والقصف والنزوح.. وغيره".

وأتم قائلاً: "هذه المنطقة نزح أهلها أكثر من 20 مرة، بسبب قصف قوات النظام والاحتلال الروسي". وأضاف: "لقد تراجعت زراعة التفاح، فنتيجة النزوح أُهملت الشجرة وفقدت الاتصال بينها وبين المزارع، ومعروف عنها أنه إذا أهملت سنةً أو أكثر تتراجع، مما يؤدي إلى يباسها أو موتها بشكل نهائي".

ويتابع أبو أحمد عن تراجع زراعة التفاح: "هناك أسباب أخرى، فاليوم لا توجد حملات عسكرية.. والناس تقريباً عادوا إلى المنطقة، لكنهم وجدوا بساتينهم كلها يابسة، فهم يحاولون زراعتها ثانية".

وأضاف: "المنطقة غنية بالمياه، لكن استخراج المياه الجوفية مكلف؛ فالبير بحاجة لمولدة وديزل، وحتى اليوم لا تتوفر أنظمة طاقة شمسية كافية، فضلاً عن كونها مكلفة جداً".

ضعف إمكانيات ورسائل للجهات المعنية بالحل

ويحاول اليوم كثير من المزارعين إحياء هذه الزراعة، لكن الإمكانيات بين أيديهم ضعيفة، وطالب المزارعون في حديثهم مع طلعنا عالحرية، بالدعم لإحياء تلك الزراعة من جديد، وحدّدوا نوعية الدعم بتوفير الأدوية والأسمدة، وسبل استخراج المياه من الأرض، أو تزويد المزارعين بأنظمة الطاقة الشمسية لسقاية الأرض".

ديوان "طفلة لوثت فستانها".. الأمومة في القصيدة

حسين الضاهر

البعض يعتبر الشعر حالة ترفٍ وربما طريقة معيشة تضمن لصاحبها بضع بلاطات من رصيف في حي اللغة، يعرض عليها بضاعته.. اليوم وبالنسبة للإنسان السوري، أعتقد أنه بات حاجة ملحة؛ دواءً يقي الجنون، دواءً يجلب الجنون في وقت صار التعقل فيه أداة حادة تودي إلى الموت بكل يسر وسهولة.

طفلة لوثت فستانها:

عديدة هي التجارب التي ارتقت لتكون دواءً، وأجزم أنّ آخرها مجموعة "طفلةٌ لوثت فستانها" للشاعرة السورية "بشرى البشوات" الصادرة مؤخرًا عن دار نينوى للنشر والتوزيع.. في هذه المجموعة التي جاءت في (122) صفحة من القطع المتوسط، ومبوبة بستة أبواب، يتجلى القلم الأنثوي السوري بشكل واعٍ، من حيث اصطفاف القصيدة إلى جانب القضايا الكبرى التي تهم السوري؛ اللجوء، الحرب، الاغتراب عن الوطن والنفس التي كانت عليها في آن واحد.. إلى جانب لجوئها إلى معالجة القضايا الصغيرة "الشخصية والنفسية"، فتطفو على سطح مفرداتها؛ عبارات وجمل تؤسس لذلك الطرح، فيكون الحب حاضرًا، العلاقات الإنسانية، التشوه الروحي والعطب الذي خلفته الحرب، وكأن الشاعرة أرادت أن تروي سيرتها ومكنوناتها من خلال القصيدة..

"ما من قلبٍ يتسكّع هنا
في هذا الوقت المتأخر من الليل،
كل القلوب ترجع عند المغيب.
أحببت مرةً رجلًا
يعوي قلبه حين يثمل،
يركل الكلاب النائمة في الطرقات،
يهاجم مرايا السيارات
يهاتفني آخر الصحوِ
يقول: لو كنتِ أجمل قليلًا
لسهل عليّ أن أفسر صوت الماء".

الأمومة في القصيدة:

لا تستغل بشرى القصيدة لتثبت نفسها في هذه المساحة، بل تراها بعيدة كل البعد عن حالة التكلف والزخرفة، فعدا عن اختيارها لغة سلسة، صاغت أيضًا جملها بوجدانية طلقة. فعلى سبيل المثال، تطلق العنان لغريزة الأمومة لتسيطر بوضوح على الجو العام لبعض القصائد، التي تستحضر فيها ذكريات عن والدتها، الأم التي جاءت عنوانًا للباب الأول من الديوان والتي تشكل في قصيدة بشرى صورة البعث والحياة، كما تستذكر لحظات ولادتها، وأيضًا تتحدث عن أولادها في أكثر من موضع، وهذا تعبير واضح على إطلاق الشاعرة العنان لغرائزها لتجول في سهول القصيدة.. وعلى الرغم من ذلك لم تترك المجال للعاطفة كي تكون سمة بارزة لروح الديوان فتظهر بشكل يوحي بالطفولة الشعرية، بل تركت بصمات فنية واشتغالات جريئة في بنية قصيدتها..

"لم تشاهد أمي البحر ولو لمرة في حياتها
وحين قالت:
صفي لي شكله،
فتحتُ صَدَفَةً بين يديها الخشنتين".

في حين تنحو "بشرى البشوات" نحو مواضيع أكثر تشاركية مع القارئ عندما توجه بوصلة القصيدة نحو رحلتها إلى الضفة الأخرى من مياه المتوسط، وهنا تقول:

"أنا وحيدةٌ أيها الرب
وأنت وحيد..
سألقيكَ في البحر، يقول قبطان الموت،
حزينةً
وأنتِ لم تشتر سترةً للنجاة،
أقف كطائر ينظف ريشه
على شاطئ إزمير،
في ظهري غيمة ميتة
ستغرقني وإياها الكراكيب وتوابيت الحجر،
سم لي بحرًا لأرجمه".

من الجملة الأخيرة التي تتحلى بشعرية عالية، كذلك تظهر مدى معاناتها وما تحمله تجاه الماء المالح الذي كان وما زال شريكًا لآلة الحرب في قتل السوريين، ومنه تشارك الشاعرة كثيرًا من البشر المعاناة.. ومن المؤكد لم تكن بشرى الأولى ولا الأخيرة في طرحها لهكذا مواضيع، لكن تبقى ذات بصمة فريدة في الطرح.

وعلى ما يبدو أن البيئة الجديدة كانت ظاهرة في نصوص الشاعرة، لكنها أخذت خط مسير مغاير للسائد لدى الشعراء الذين حلوا على تلك البيئة، حيث يحاول معظمهم الركون إلى التركيب البسيط للصورة الشعرية، قد يكون ذلك طموحًا بالترجمة، بينما بشرى، شاءت أن تكتب بسجيتها الشعرية، غير عابئة بالمتلقي، فقط أرادت الإفشاء بأسرار الشعر والمشاعر التي حملتها، من دون أن تفكر باعتبارات أخرى.

"المرأة التي تسبح داخلي
تعطش في الصباح فقط،
تترك الأغطية في حلق السرير
ترخي ستائر الشبق
لأن شمسه نبتت في أصيص
امرأة أخرى،
المرأة التي تحب الشجر مثلي
تسكب ماءً على أصابعه الميتة".

ومن المؤكد أن يرى المطلع على الديوان، استخدام الشاعرة السرد كحجر أساس في بناء النص الشعري، السرد الذي يتكئ بذاته على التكثيف، وعليه استطاعت أن تكتشف الشعر الموجود في اليومي المعاش، فالشعر أساسًا موجود في كل شيء، إلا أنه يحتاج كيميائيًا ماهرًا يفصله عن أصله ويقدمه مادة مشغولة..

وبينما ينشغل معظم كتّاب قصيدة النثر في تنسيق خط عكسي لمواضع قصائدهم ضمن الكتاب، تبني بشرى خطًا مغايرًا، حيث تبدأ بما هو عادي من النصوص، ثم وبسير تصاعدي تنتقل نحو الرؤيوي، أو ما هو أكثر رمزية، وفي هذا ساعدها تبويب ديوانها لستة أبواب كما ذكرنا سابقًا، فتبدأ من الأم، ثم تنتقل إلى البيت، فباب الأسماء، الأصوات، الهوامش، وتنتهي إلى باب الخيبة. كما عمل التبويب على تصنيف القصائد، ابتداءً بما هو ذاتي، إلى ما هو ذاتي تشاركي أكثر.

وأخيرًا، ليس صعبًا التقاط الشعر في قصيدة بشرى فهو بالنسبة لها مادة استطاعت سبكها وتقديمها للقارئ بصيغة جميلة تحلو له.

من أجواء الديوان:

"أنا لا أكذب
فقد أخبرتكم قبل الآن
أن أمي هي بائعة الحليب تحت السوق المسقوف
لها جناحان أسودان
وعندنا كلب يقضي يومه لاعقًا وقته
أمي تربي تابوتًا في ظلها
تغش الناس
تكيل بمكيالين
وتضيف كل نهارٍ خيبة إلى مكيالها".

بشرى البشوات:

شاعرة وكاتبة سورية من مواليد القنيطرة، ومقيمة في ألمانيا.

حائزة على عدد من الجوائز في مجال القصة القصيرة ومنها جائزة عبد الباسط الصوفي 2005.

وجائزة عبد السلام العجيلي 2008.

تكتب في عدد من الصحف والدوريات العربية.

تتمة من صفحة 9

فيه الأفراد دون موعد مسبق، دون تحضير مسبق، دون دعوات رسمية أو جدول عمل، يلتقون في المكان فقط لأنه يعاند جفاف الحياة السياسية وعبثها في المؤسسات العامة السلطوية والمعارضة. يلتقون على حوار الكلمة متعددة الأنماط والدلالات، يختلفون في أوجه الثقافة ولكن يتفقون. يتفقون على تعاقد المختلفين حول المسألة الوطنية؛ فلا أحقية مفردة لحزب أو جماعة سياسية أو دين على التفرد في الحكم، بل هو اتفاق على التشاركية الجمعية في إنقاذ ما تبقى من هذا الوطن.

يحلمون، يفكرون، يحاورون، وعين بعضهم ترقب التاريخ الوطني الذي صنعه القوتلي وأبو خير وسلطان الأطرش وفارس الخوري وهاشم الأتاسي ومئات غيرهم ممن حيدوا غلو السياسة وحققوا حرية الإيمان وعملوا لبناء الوطن والدولة وحسب. وعين أخرى ترقب ما فعله الشباب المدني والسلمي أوائل العام 2011 مستهدفين الحرية والكرامة واسترداد الدولة من حكم العسكر. وعينهم الثالثة، عين القلب، وهذه تعتصر دمًا على ما فعله عهر السياسة السلطوية المحلية والدولية في هذه الديار من قتل واعتقال وتهجير وتفريغ مدن بأكملها. والباقي منا كلمة ترفض أن تكون شاهد زور؛ فهذا الوطن مالم تحمله روح وقلوب شابة، وأيادٍ خبيرة مغموسة بالوطنية دون شهوة سلطة أو استيلاء على الحكم، سيبقى يبكينا لآخر رمق فينا.

ليس لأنه مكان تاريخي يلتزم فعل الخير أو إيقاظ الشعور الإنساني وكفى، ولا لأنه ملتقى للبقية منا المهتمين بالشأن العام، الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والممتد على مساحة مقبولة من الخضرة والمزروعات فقط. بل لكونه، وفعل الكون تشكّلٌ ووجود ومستقبل، مساحة سورية تعاكس تيار الانحدار القيمي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي وصلنا إليه. مكان يقوم على نوايا أصحابه وزواره، على تقديم قيم الخير والثقافة والتعليم والحب قبل أي مصلحة فردية أو نزعة شهوانية للاستحواذ على السلطة. مكان يعمل بالصالح العام والمصلحة العامة، حين يختار بلا ترتيب أو أجندات مصنعة في غرف مظلمة، يختار أن يعمل في النور علّه يحقق ما عجزت عنه السياسة والحرب، يحقق ثلاثية الوطنية تاريخيًا والحرية مستقبلًا وما بينهما من الكرامة والحب والإنسانية وإن كانت في برهة من هذا الزمن الممعن في الموت والجريمة.

محنة المبدعين مع الطّغاة

ياسمين نهار

حين تجرّأ بروميثيوس على سرقة النّار، رأفةً بالبشر وإيماناً بقدرتهم على الإبداع وصنع الحضارة، هل كان يعلم أنّ في "رسالة الضّحابة" لعبد الله بن المقفّع جذوةً من ناره؟

ابن المقفّع أراد الخير للنّاس فنصح الخليفة بحُسن سياستهم، ولأنّه تجرّأ على النّصح والوعظ ولم يقدم على التّعظيم والمدح عُوقِب بتقطيع جسده ورميه في التّنور ليحترق جسده بنار من نصّب نفسه خليفة الله على الأرض.

هل كان بروميثيوس يعلم أنّ ناره ستجذب عبد الرّحمن الكواكبي بسحرها ليأخذ منها قبساً يكشف من خلاله أخطار الاستبداد السّياسيّ على الشّعوب في كتابه "طبائع الاستبداد"؟ ألم يقل لنا ذات يوم: "الأمّة التي لا يشعر كلّها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحقّ الحريّة"؛ فقد كان الكواكبي توّاقاً إلى الحريّة، كرّس حياته وفكره لمحاربة الاستبداد، ولكنّ شعلة الحريّة التي حمل لواءها أخافت المستبدين ودفعتهم لاغتيال صاحبها.

مات الكواكبي لكنّ شعلته مازالت تنير درب السّائرين في دروب الحريّة الوعرة المحفوفة بالمخاطر، تلهمهم حيناً، وتدفعهم حيناً آخر.

هل كان بروميثيوس يعلم أنّ طه حسين تجرّأ على سرقة النّار مثله حين نبش التّراث وشكّ في صحّة رواية الشّعر الجاهليّ وحقيقة تدوينه في كتابه "في الشّعر الجاهليّ"، وتولّى الذين نصّبوا أنفسهم أولياء الله على الأرض تكفيره ومحاكمته؟

طه حسين مبدع رفض الغرب الاستهلاكيّ، وانفتح على الغرب الحضاريّ والفكريّ بعيداً عن "مركّبات النّقص" على حدّ تعبيره. لذلك لم يعد من الغريب أن يقول: "لقد أنصفني أناس شاركوني عشق الثّقافة واحترام العقل ولم أشاركهم أصالة المنبت ولا زرقة الدّم. ووقف ضدي أناس أشاركهم كلّ شيء فيما عدا التّخلّف وتملّق غرائز الغوغاء".

هؤلاء وغيرهم من المبدعين، سارقي النّار، مازال النّسر ينهش كبدهم إلى يومنا هذا، لأنّهم تجرّؤوا على طرح الأسئلة، وأقلقوا المؤسسات الثّقافية والدينيّة التي اعتادت تقديم الأجوبة الجاهزة.

وفي ضوء ذلك يحقّ لنا أن نتساءل: هل يستطيع المبدع العربيّ أن يعبّر عن أفكاره ورؤاه بينما تزداد الهوّة اتساعاً يوماً بعد يوم بين التّنظير للمساواة والعدل والحريّة، وبين واقع تضيق فيه فرص الإفصاح ويُقمَع كلّ صوت يغرّد خارج السّرب على مبدأ (من ليس معنا فهو ضدّنا).

من المؤكّد أنّ الإنسان يمتاز عن سائر المخلوقات بالقدرة على إنتاج الفنون والاستمتاع بها، هذه القيمة الجماليّة التذوّقيّة توحّد البشر جميعاً تحت قبّة الفنّ، بعيداً عن القوميّات والإثنيات والأعراق المختلفة؛ أي هي مجال للتواصل الخلّاق مع الآخر إبداعاً وتلقّياً. وغير خاف على أحد أنّ التّواصل الخلّاق مع الآخر لا يتمّ إلّا في مُناخات الحريّة.

حين يضع المبدع رؤاه وأفكاره وخلاصة تجربته في شكل معيّن قد يكون لوحة أو قصيدة أو عرضاً مسرحيّاً.. يحتاج إلى الحريّة وإلى الفكر المستقلّ بعيداً عن التّسييس والأيديولوجيا. وفي ظلّ ثقافة تعاني منذ خمسة عشر قرناً من القيود الاجتماعيّة والدّينيّة والسّياسيّة، تُحرَم الأمّة من تشكيل هويّة ثقافيّة متميّزة عن الآخرين.

وإذا ما استثنينا بعض الأصوات الفرديّة التي تجرّأت على المواجهة والخروج عن الأطر الجاهزة، نجد أنّ الهويّة الثقافيّة العربيّة -غالباً- إمّا هويّة ماضويّة؛ لم تخرج عن الموروث ولم تقرأه قراءة جيدة، أو هويّة تعتمد تقليد الآخر (الغربيّ) تقليداً سطحيّاً أعمى.

هذه الحالة من تشتت الهويّة تقودنا إلى التّساؤل عن علاقة المبدع بالسّلطة، وهل تستطيع المؤسسات الثّقافيّة العربيّة (المؤدلجة) أن تستخدم الإبداعيّ الجماليّ من أجل تمرير رسائلها وخداع الشّعوب المقهورة؟

قد يكون من المفيد الإشارة إلى أنّ الإبداع الحقيقيّ في حالة تناقض مع كلّ ما هو مؤسسيّ في الثّقافة والدّين والسّياسة، بل إنّني أذهب إلى القول بأنّ المبدع في صراع دائم مع الأوصياء على كلّ ما هو ثابت.

ليس غريباً إذاً أن تكون العلاقة ضدّيّة بين أنظمة تعيق تأسيس أيّ حركات سياسيّة أو اجتماعيّة أو ثقافيّة، لأنّها تخشى النّقد والرّأي الآخر، وبين فئة -وإن كانت تمثّل الأقليّة- من الشّعراء والكتّاب والفنّانين.. وقد وضعت الأنظمة الاستبداديّة هؤلاء المبدعين بين خيارين؛ الخيار الأوّل: الانسحاب والعزلة والخضوع، والخيار الثّاني: التمرّد والرّفض والثّورة. ولا تخفى على أحد النّتائج الكارثيّة للخيار الثّاني، بدءاً من التّهميش والملاحقة، وانتهاءً بالاعتقال أو الاغتيال.

لذلك لم يعد من المستهجن أن يلجأ المبدع إلى الحذف أو المواربة في نقد الواقع خوفاً من عواقب المواجهة، وقد يلجأ المبدع إلى الرّمز أحياناً أخرى -رغم أهميّة الرّمز في خلق مناخ إيحائيّ شعريّ- من أجل تمويه مواقفه خوفاً من الرّقابة ومَن يقوم بتوظيفها.

ومن المهمّ الإشارة إلى أنّ المبدع يحتاج إلى التّحرّر من الرّقيب الدّاخليّ والرّقيب الخارجيّ ليطلق طاقاته الحبيسة، وهذا لن يتمّ إلّا في مُناخات الحريّة.

ولاشكّ أنّ الشّعوب التي تربّت في أطر الشّموليّة تحتاج نضالاً مديداً لتتخلّص من النّظم الشموليّة وتدخل زمن التّعدّد والاختلاف وحريّة التّفكير والتّعبير.

صحيح أنّ للسّلطة أتباعها من أنصاف الموهوبين والانتهازيين الذين يعملون على تبرير سياساتها، وتجميل ما تقوم به من قتل وتدمير واضطهاد عن طريق الكذب والخداع والتّضليل، لكن في الطّرف المقابل المبدعون، سارقو النّار، حاملو مشاعل اللّاءات، هم الذين اتّخذوا موقف المعارضة والتّمرّد والرّفض، أو موقف المسافة من السّلطة، والمساءلة الدّائمة في حياتهم وفي أعمالهم الإبداعيّة.

ساعدونا على التخلص من الشعراء - قراءة غير نقدية

عزام الخطيب

لذيذة تلك الصدمة التي شعرت بها وأنا أتجول في معرض للكتاب العربي في هذه المدينة، التي أعيش فيها منفاي القسري، والسبب في هذه الصدمة الممتعة المحفزة أعزائي القراء أنني بعد أن أنهيت كتابي الشعري الأول، وفرحت به أيما فرح، ومشيت بسببه مختالاً بين أصدقائي فخوراً بما أنجزت، لم أستطع أن أتمالك نفسي عند رؤية هذا العنوان "ساعدونا على التخلص من الشعراء" لتاج الدين موسى.

حدثتها مواسياً لها بقولي: "لا تأبهي لهذا القاص الغر المبتدئ، فهذا عمله الأول أيضاً ولايزيد عني بشيء"، فأجابتني بخبث المتحدي الواثق: "لم لا تتصفح آخر الكتاب للتأكد من ذلك؟"!

سبع مجموعات قصصية، أربع مسرحيات، ثلاث جوائز إبداع أدبي، ممثل هاوٍ أيام الطفولة وبدايات الشباب، مقالات، دراسات، ترجمات!..

فما كان مني إلا أن غيرت واحدة من أهم عاداتي الثقافية؛ وهي ألا أشتري كتاباً من جولتي الأولى في أي معرض أو مكتبة أزورها، ولكني كسرت هذه العادة واشتريت الكتاب بسرعة مغادراً المكان لقراءة قصصه من ناحية، ولأتخلص من نظرات المستغربين لرؤية شخص يمشي وحيداً ضاحكاً محوقلاً.

غريبة هي المشاعر التي تنتاب القارئ وهو يمعن النظر في ذلك الفارس الخامس الخفي، الذي يخفي بغموضه السعادة والشقاء، الموت والحياة، إضافة لكل تلك التناقضات التي تعتري أربعة أشخاص كثيري الشرب، والحالمين بمجتمع أفضل.. يتعامل فيه الناس مع بعضهم برقي واتزان..

ولكن هيهات أن يصلوا لما يريدون، إنهم وإن بدؤوا بتوزيع الخمر على الناس خلسة في الليل، عساهم يوصلوهم لتلك الحالة، إلا أن يد السجان كانت أكبر من الجميع، لتخفي في جبروتها الممزوج بحمق غريب تلك القدرة الهائلة على قتل كل جميل، لينتهي المطاف بالحالمين الأربعة إلى تجرع كأس الموت على يد سجانهم، وهي يحاولون إقناعه بأن خامس هذه المجموعة هو ذلك الحلم الخفي الصعب التحقيق.

ولكن قد يتساءل القارئ ما هو دور الشعراء في الموضوع؟ فتكون الإجابة بتسليط القاصّ الضوء على أن الشعراء، وبكثرة عددهم، بعضهم يتقن هذه الصنعة، وكُثر آخرون لا يتقنونها، وبلباسهم الرثّ وقبعاتهم القديمة قد زاد عددهم بشكل كبير، حتى أصبح لكل مواطنٍ شاعرٌ، إلا أن الشعراء وبتصريحهم الشعري لا يشكلون إلا مرآة لمكنونات النفس وثوراتها وتقلباتها. وكثرة عددهم تمثل ما في المجتمع كلّه من مكنونات وأحلام وتناقضات.

ومن الصعب عزيزي القارئ أن تغلب بكاءك وأنت تقرأ قصة "أشياء لا تستطيع السماء أن تحكيها للبشر"؛ ستكتشف معي بها مرارة الحرب وبشاعة ما يحدث فيها من فظائع يندى لها الجبين. فالمرمض دفيء النفس الذي يتاجر بجثث موتاه، والذي من المفترض أن يكون أميناً عليها؛ يدسّ في جيبه ما تسول له نفسه من حليّ ذهبية ورسائل وعملات، بالاتفاق مع طبيب آخر من الجهة الأخرى من المدينة، التي انقسمت على أساس طائفي بين منطقتين يتبادل كل طبيب فيها مع شريكه من الجهة المقابلة الجثث والرسائل والمسروقات! إلى أن تحصل المفارقة العجيبة بعودة شخصين إلى الحياة بأعجوبة، أحدهما رجل عجوز والأخرى صبية سمراء كتب الله لهما النجاة والعودة للحياة في اللحظات الأخيرة، بينما يوجد في أحشائهما رسائل يعبر فيها زوجان كل من طائفة معينة بعد أن تفرقا كل إلى حيه، وبعد أن فقدا أولادهما وفلذة أكبادهما في القصف.

فالحب يعبر كل الطوائف والحروب المأسي، ويعيد من يئس الأطباء من شفائه إلى الحياة ليشكلا معاً أيقونة للتلاقي وتعبيراً عن الجنون الذي ينتاب البلاد كما يقول الكاتب.

بعد أن تأثرت مع الكاتب حزناً وبكاء على ما وصل إليه حالنا من تعاسة وجنون، كان لا بد للكاتب أن يأخذنا إلى عالم من السرور والضحك حتى القهقهة من تلك المفارقة الغريبة والتناقض العجيب بقصة "من تاريخ الحركة النقدية في بلادنا"، والتي يروي فيها الكاتب قصة شاب يعمل في فرن للخبز صادف وجوده -أي الفرن- في نفس مبنى اتحاد الكتاب، وللصدفة البحتة دخل الشاب عن طريق الخطأ إلى أحدى الأمسيات الأدبية ولم يعرف ما يجري حوله، وتناهي لسمعه كلمة ناقد دون أن يعرف معناها وما تمثله، لكن المضحك في الموضوع أن كل من التقى بهم من شعراء وروائيين وقصاصين قد طلبوا منه أن يكتب لهم مقالات نقدية عن أعمالهم، ومنتهى الخبث والذكاء استطاع صديقنا عامل الفرن نفسه أن يتجاوز هذه الورطة باتفاق سري مع كل كاتب أو قاصّ بأن يكتب هو -أي الكاتب- المقالة النقدية المناسبة لنتاجه مدعياً قلة الوقت، وبعد أن نال صاحبنا شهرة واسعة كناقد أدبي عبر نشر العشرات من المقالات في كبريات الصحف، لم يستطع السيد فوزي أن يفك طلاسمها طبعاً، وحصل برغم كل ذلك على جائزة تقديرية ومكافأة نقدية كبيرة تقديراً لجهوده الجبارة، وعند سؤال جموع القراء والمهتمين له عن اسم دار النشر التي ينوي إنشاءها بهذا المبلغ الضخم أو عنوان الكتاب النقدي الذي سيحوي أعماله فأجاب صديقنا فوزي: "لا لا أبداً.. لا أنوي أياً من هذه الأفكار، ولكنني أريد أن أؤسس فيها فرناً للخبز"!

وبعد أن تجولت معكم أعزائي القراء على بعض من ثلاث وسبعين قصة بين دفتي هذه المجموعة القصصية، كان من سوء حظي أنني علمت وفي الصفحة الأخيرة منه اعتزام الكاتب اعتزال العمل القصصي بشكل عام، وهو ما أطالبه بالعودة عنه إلا إن كان يخبئ لنا ما هو جديد في فنّ أدبي آخر.